

# دعوة الحق

تصدرها رابطة العالم الإسلامي  
مكة المكرمة

## مِنْ جَمَالِيَّاتِ الْبَصَائِرِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

تأليف  
محمد قطب عبد الغفار

السنة التاسعة - العدد ٩٩ - العام ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

دعوة الحق

السنة التاسعة - العدد ٩٩ - العام ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

مِنْ جَمَالِيَتِ النَّصَوِيَّاتِ  
فِي  
الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

تأليف  
محمد قطب عبد الوكيل

تصدرها رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



## مقدمة

القرآن الكريم ، كتاب الله ودستور المسلمين ، كثرت حوله الدراسات وما أوفت . فهو الذخيرة الحية ، والنبع الثمر ، بما فيه من عقيدة ، وأحكام وتشريع وأخبار . وبما يتميز به من أداء تعبيرى معجز . فهو المعجزة الكبرى التى تحدى بها محمد ﷺ الأجيال جميعا . إنه حجة الله على الخلق وحجة الرسول فى رسالته . إنه كتاب الله خاطب به أوليائه فعرفوه ، وأولى الألباب فأدركوه . إنه الشريعة ، والمرجع ، والطريق ... إنه النبع الإلهى الذى ينهل منه المسلمون فى كل حين وآن .

والقرآن الكريم ... يجمع بين الهدف الدينى والمطلب الفنى من حيث الجمال فى العرض ، والتنسيق فى الأداء ، والتأثير فى النفس ، مما يستثير كوامن الوجدان ، فتتفتح النفس استعداداً لتلقى المطلب الدينى فى صفاء وجمال وجلال . والتصوير فى القرآن نسيج تعبيرى متفرد ، وهو أحد الملامح الفنية فى الأسلوب القرآنى . هذا الأسلوب الذى اتخذ تفرداً من نفس العطاء اللغوى ، فتحدى به الرسول حملة القول وأصحاب اللغة .

قال تعالى ﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شيء ﴾<sup>(١)</sup> .... وما أقدمه يسعى إلى الكشف عن بعض جوانب هذا الأداء التصويرى فى مجالاته المتنوعة ، مع اليقين بأن ما جاء فى الدراسة ليس إلا محاولة قد يكتنفها القصور .

وإننى لأتوجه إلى الله بالشاء والحمد على ماتفضل به على . كما أتوجه بالشكر لكل هؤلاء الكتاب الذين تناولوا هذا الجانب التصويرى فى القرآن الكريم .. فما الماء إلا مجموعة من القطرات الندية .... والله أسأل أن يتقبل منا .. ويتجاوز عن قصورنا ... وأن يحفظنا بالقرآن ، ويؤنسنا بنوره .

(١) الأنعام : ٣٨ .



## الفصل الأول

### الأداء التعبيري ودلالة الألفاظ



## الأداء التعبيري ودلالة الألفاظ

التصوير هو السمة المميزة في القرآن الكريم ، وهو أحد الملامح التعبيرية الأساسية في الأسلوب القرآني . هذا الأسلوب الذي اتخذ تفرداً من نفس العطاء اللغوي الذي عرفه العرب القدماء . فالألفاظ والتراكيب والصياغة النحوية هي ما تواتر في أصول اللغة .. وهي التي عرفها العرب . معرفة فطرية دقيقة .. ومع ذلك فإن القرآن الكريم تحدى حملة القول وأصحابه بالقول نفسه . فلقد تحداهم بالأداء التعبيري الفذ .. الذي قصرت عن إدراكه أقوى العقول وأصفى الألسنة .. فالأسلوب القرآني .. هو جوهر التحدى وهو رمز المعجزة ووسيلتها وشرفها .. وهو ذو خصوصية متفردة وهو نمط في الأسلوب الأدبي بلغ حد الإعجاز . ومن ثم كان التأثير النافذ والمتغلغل في أعماق النفس .

○○○ والأسلوب في بنائه التعبيري يعتمد على عناصر كثيرة منها ...  
الألفاظ ..

والألفاظ في أسلوب القرآن لها جمالها المميز ، ووقعها النغمي ... وتناسقها الكامل مع المعنى ، وأثلاثها مع دلالات المعاني المصاحبة ... بحيث لا نستطيع أن ننزعها من مكانها ، أو نأق بمرادف لها ، إنها متماسكة مع أخواتها ، متلاصقة مع رصفائها ، متحدة في السياق ، ومتماشية مع المعنى والغرض .

إنها كما يقول الجرجاني في دلائل الإعجاز كل كلمة تقف مع أختها ، ولو حاولت أن تنزع كلمة لتضع مكانها أخرى في معناها ، ما أثلتف السياق ولا انسجم الأسلوب ..

نرى هذا الاتساق في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ

لكم انفروا في سبيل الله أثاقلتم إلى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ﴿١﴾ .... فكلمة ( أثاقلتم ) .. في أدائها الفني ، توحى بظلال المعاني المصاحبة « لفعل الكلمة » ... إن نظام الحروف في الكلمة ينبنى عن المعنى المراد .. فالتشديد والمد والوقف ، يُوحى بالتشاكل الشديد .. وكأنما حركة الفعل تتجه إلى أسفل .. الأرض ، في الوقت الذي كان يجب أن تتجه فيه إلى الأعلى . مفارقة الأرض ... وكأنما بين هؤلاء والأرض خيط غليظ يربطهم بها ... فلا يستطيعون أن ينفكوا منه .

وهي في نفس الدلالة توضح نفسية بعض المسلمين حين دعاهم الرسول ﷺ إلى غزو الروم ... فكشفت عن المتشاكليين ، المتباطئين في تلبية النداء . ولقد وردت المفردة ( أثاقلتم ) في سياق تعبيرى يرفد المعنى المراد ويكشف خبايا النفس .. فثمة استفهام في الآية الكريمة ، خرج عن معناه الحقيقي إلى معنى بلاغى ... هذا المعنى يراد به التقرير والتوبيخ .. ومعنى هذا أن ثمة فعلا مذموماً ، استدعى أن تقوم الآية بتوبيخ ما موجه إلى المؤمنين ... ولاشك أن كلمة ( أثاقلتم ) توضح لنا هذا السبب ، وتكشف لنا الفعل الذمى الذى استدعى توبيخهم .. إنه لفعل جسيم .. إن التباطؤ عن الدعوة .. جرم لا يغتفر .. والنكوص عن الغزو فعل أدانته الآية .. ومن ثم كانت مفردة ( أثاقلتم ) هى المفردة المتلائمة مع المعنى ، وإذا نزعناها أو أتينا بكلمة مترادفة في المعنى معها .. ما كان للسياق من تأثير ، وما كان هناك ارتباط بين الاستفهام التقريرى ودلالة الفعل المجرم .. وما انكشفت لنا هذه الظلال ، من المعاني المصاحبة للكلمة . وهى إذا كانت تحمل التقرير ... فهى تحمل العتاب .... وفى كل الحالات فهى كشف لجوانب نفسية غائرة فى نفوس المسلمين الذين تباطؤوا فى الدعوة إلى الجهاد وغزو الروم .

(١) التوبة ٣٨ .

ثم نجد تضافر الكلمات وتناسقها وتآزرها . فكلمة ( أثقلت ) ترتبط  
 فنيا ومعنوياً ودلالياً ... بعبارة ( متاع الحياة الدنيا ) فالعبارة تفسر لحركة  
 التثاقل البطيء المشدود إلى الأرض شدة .. إنه الميل إلى متاع الدنيا  
 وعرضها .. ونسيان متاع الآخرة ... وورد الاستفهام مرة أخرى ليرفد معنى  
 الاستفهام الأول ويقويه ، فثمة توبيخ وثمة عتاب .. على الموقف الذى وقفه  
 المؤمنون من الغزو .. فما المتاع المستحق سبب في النكوص ، وما هو  
 سبب في التثاقل ، لأنه متاع زائل .. لاقيمة له إذا قيس بمتاع الآخرة .

وعلى هذا فإن كلمة ( أثقلت ) جاءت في الأسلوب القرآنى متفردة  
 متميزة من حيث البناء الصوتى ومن حيث المعنى ، ومن حيث ظلال المعانى  
 المصاحبة ... مما يؤكد على أن المفردة القرآنية ... لا تغنى عنها مفردة  
 لغوية أخرى ... فهى محكومة بالبناء القرآنى ... ودلالته التعبيرية ...  
 المتفردة فى تآلف منسجم .

وتآلف المفردات لا يأتى فقط من ناحية النسق والجرس الصوتى ، بل  
 يشمل كما رأينا ، التآلف فى المعانى ، والتماسك .. فى البناء ، والتأثير  
 بالمعانى المتداعية ... وهذا التأخى والتآلف والتماسك فى الألفاظ والمعانى  
 واضح فى كل آيات القرآن الكريم .. فمعنى كل لفظ يمهّد لمعنى اللفظ  
 الآخر ... فلا تنافر فى الألفاظ ولا تنافر فى المعانى ... ومن ثم ينساب الأداء  
 القرآنى فى النفس كالماء المترقرق العذب .

ولنأخذ نموذجاً آخر على تفرد المفردة القرآنية .  
 قال تعالى : ﴿ وَإِذْ نَحْنُكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ  
 يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ، وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ، وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ  
 عَظِيمٌ ﴾ (٢) والآية القرآنية تذكير لنعم الله سبحانه وتعالى على بنى اسرائيل ،

حيث نجاهم الله من بطش فرعون وأهله ، فقد كانوا يلاقون أشد العذاب وأفظعه ، من ذبح الأبناء من الذكور واستخدام الإناث للخدمة والعمل ... فرفع الله عنهم هذا البلاء المهيئ .. وتلك نعمة يجب على بني اسرائيل أن يذكروها دائماً .. ولقد عكست الألفاظ القرآنية المهانة التي كان عليها بنو اسرائيل . وجاءت الألفاظ متضافرة مع رصفائها ، بحيث نعجز عن الإتيان بمرادف لها . لأن المرادف هنا ، لفظ بشرى ، وهو لفظ قاصر مهما أوتي من فصاحة وبلاغة .. ففى كلمة « يسومون » نجد المد الذي يوحى بالاستمرار والتواصل .. فالنطق الصوتي يستغرق زمناً طويلاً نسبياً ، مما يعكس حالة العذاب التي طالت على بني اسرائيل .. وهى من حيث الترادف اللفظى .. فإننا نعجز عن إتيان كلمة تؤدي نفس المعنى ، ونفس الدلالات المصاحبة لها .. فكلمة مثل ( يذيقون ) أو كلمة ( يولون ) .. لاتحمل دلالة المعنى في المفردة القرآنية .. فهى تعنى شدة الظلم وقسوة الخسف بينى اسرائيل ومداومة العذاب .. ولذلك فمجيئها في النسق القرآنى دليل على مآلقيه بنو اسرائيل من عذاب شديد ومهانة ذليلة على يد فرعون .. وكأنهم مطالبون دوماً به .. ومن ثم تضافر المعنى تضافراً تاماً مع مفردة ( سوء العذاب ) ...

ويرى الزمخشري في هذا الموقف ( ومعنى سوء العذاب .. والعذاب كله سيئ - أشده وأفظعه ، كأنه قبحه بالإضافة إلى سائرته ... )<sup>(٣)</sup> وكلمة « سام » تؤدي إلى دلالة المعنى في سوء العذاب وتعلو بها إلى بيان ألوان العذاب الشديد ... مما تبرزه الألفاظ الأخرى .. فكلمة ( يذبحون ) ... جاءت بياناً لكلمة « يسومون » و « سوء العذاب » ولا بد أن تتضمن قوة هذا العذاب الدائم المستمر ... وشدته .. فجاء التشديد دلالة على المراد ...

(٣) الكشف جـ ١ ص ٦٨ .

وورود الكلمة ( يُذَبِّحُ ) يعنى إسناد الفعل لإرادة العمل ، والإصرار عليه بخلاف لو غيرنا الضبط لتصبح ( يَذْبَحُ ) .. هنا تحمل الكلمة معنى الذبح الخاص بفاعل الفعل بحيث تنتفى فيه إرادة الفعل والإصرار عليه وانسحابه على الغير بكثرة .. ومن ثم تصبح مفردة « يذبحون » عاكسة لتاريخ الفعل نفسه والخاص ببنى اسرائيل أو اليهود في مصر في ظل فرعون .. حيث إن الكهنة أُنذروا فرعون بأن مولوداً سيولد وسيكون في مولده هلاكه ... ومن ثم تصبح الكلمة جامعة .. للسياق اللفظي والتاريخي معا ... وتأتى مفردة [ يَسْتَحْيُونَ ] لتكشف جانباً آخر من البلاء .. فثمة قتل وثمره حياة ... ولكن الحياة هنا لاتقل بشاعة عن القتل .. إنها الحياة الذليلة التي تحول النساء من كرميات شريفات إلى خادِمات .. مملوكات رَقَبَةً وعِزْضاً ، مما توحى به أشد الإيحاء على مدى الهوان والذلة التي عاش في ظلها اليهود في مصر ...

إن اللفظ المفرد له بلاغته الخاصة في إطار الأسلوب ... والائتلاف بين الألفاظ والمعاني واضح في كل الآيات القرآنية .. فنحن لانجد إلا التوحد والتكامل بحيث تمهد الكلمة الطريق إلى معنى الكلمة التالية .. في انسجام كامل .. فلا تنافر في المعاني ، ولا تنافر في الألفاظ .

ومن جماليات الأداء القرآنى ذلك الاتساق والائتلاف الكاملين .. فنحن في قراءة القرآن نواجه بذلك اللحن السماوى المتنوع المتجدد فى آن واحد .. فيبدو الجمال اللغوى ماثلاً له وجوده وأثره البين فى النفوس .

( إن دقة التعبير القرآنى ومثانة نظمه ، وعجيب تصرفه . يودى المعنى الثرى فى اللفظ القاصِدِ النقى ) .. ولنأخذ نموذجاً من قوله تعالى فى سورة البقرة :

قال تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا ،

ويكفرون بما وراءه ، وهو الحق مصدقاً لما معهم قل : فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين<sup>(٤)</sup>

إن الآية الكريمة تكشف عن طبيعة اليهود التي تتميز بالحققد والحسد وترتمى في نطاق التعصب الشديد . فنحن هنا أمام عنادهم تجاه الإسلام . فهم لا يؤمنون بالقرآن والإسلام ، متذرعين بأن ما أنزل إليهم فيه الكفاية ، وأنه الحق . والقرآن الكريم يعجب من هذا الموقف المعاند .. فهم قد كفروا من قبل بأنبيائهم وما جاءوا به ، وأنهم كثيراً ما قتلوا أنبياءهم : والآية القرآنية جزء من قصة بنى اسرائيل .. وموقفهم من الإسلام .. حيث تنداعى الآيات بعد ذلك بقصص حكاية موسى عليه السلام معهم ..

والأداء التعبيري في الآية يتضمن أنساقاً مختلفة . فثمة دعوة ناصحة لليهود إلى الإيمان بالقرآن ، ثم إجابتهم على هذه الدعوة بما تنطوى عليه من عناد ومغالطة .. وأخيراً الرد الملائم على إجابتهم بما يفهمهم ويرد عليهم حاجتهم .

وأول ما نلاحظه هو الإيجاز الكامل .. والقصد اللفظي الواضح ، والذي يحمل كثيراً من المعاني والدلالات . فعبارة ( آمنوا بما أنزل الله ) .. حملت معاني كثيرة ، واستخدمت الكناية دون اللجوء إلى التصريح .. إن الدعوة إلى الإيمان بالقرآن مرتبطة بما يردده اليهود من أنهم آمنوا بالتوراة . والقرآن أنزله الله على محمد كما أنزل التوراة على موسى . فلماذا الإيمان في جانب والكفر في جانب آخر ؟ وعبارة « بما أنزل الله » تعنى القرآن .. كما تعنى محمداً ﷺ وهو جزء متمم لوصف القرآن المقصود بالدعوة .

إن تلك الإشارة إلى القرآن وهذا الحذف الخاص بمحمد ، يعنى أن الاسلام

---

(٤) البقرة ٩١ .

له طابعه الخاص وهو ( أنه ليس دين تفريق وخصومه .. بل هو جامع ما فرقه الناس من الأديان .. داع إلى الإيمان بالكتب كلها على السواء ... ) ... كما أن الحذف يدل على أن إلقاء الاسم على مسامع الأعداء من شأنه أن يخرج أضغانهم ويثير أحقادهم فيؤدى إلى عكس ما قصده الداعى من التأليف والإصلاح<sup>(٥)</sup> .

ولقد أدى الإيجاز الكامل إلى إبراز هذه الدلالات المصاحبة .. للفظ ... وكلمة ( ماوراء ) توضح في جلاء كامل .. أنهم كما كفروا بالقرآن المنزل على محمد كفروا كذلك بالإنجيل المنزل على عيسى . وكلاهما وراء التوراة .. ولكنهم لم يكفروا بما جاء قبل التوراة من صحف ابراهيم ... مما يؤكد أن استعمال اللفظ في إيجازه جاء جمعاً مانعاً ...

وتأتى مفردة « الحق » ومفردة ( مصدقا ) ... لتبيننا في جلاء كامل ... ما تحملانه من معانى وظلال ... فالقرآن حق كما أن التوراة حق .. فكيف يكون الإيمان في جانب ( التوراة ) كفراً في جانب آخر ( القرآن ) ؟ .. إن القرآن مصدق لما هو قائم من الكتاب / التوراة .. في زمنهم وفي أيديهم .. بل وفيما يدرسون منه . فهاذا يعتذرون ؟ وأنى يذهبون ؟ ... ولاشك أن كلمة « لما معهم » وشت بهذا المعنى كله ..

إن كل كلمة كانت ( بمثابة حركة تطويق للخصم أتمت في خطوة واحدة ، وفي غير ماجلّة ولاطنطنة ) .. وتنتقل الآية إلى معنى آخر وهو قتل الأنبياء ... ولكن الانتقال جاء بعد أن وضّحت الألفاظ والمفردات الشاهد التاريخي ، والحالة النفسية .. وهذا الانتقال جاء بعد أن استعدت النفس له . إذ يفهم السامع من تكذيبهم بما يصدق كتابهم ، أنهم صاروا مكذّبين بكتابهم نفسه ) ولقد استخدم القرآن كلمة ( تقتلون ) في صيغة الفعل

(٥) النبا العظيم . د. محمد عبدالله دراز ص ١٢٠ .

المضارع لاستمرار دلالة الفعل وحضوره . وكأنما هي تصوير لواقعهم ..  
الواقع الملوث بالدم . وهكذا ندرك أن القرآن الكريم يستثمر أقل ما يمكن  
من اللفظ في توليد أكثر ما يمكن من المعاني ..

إن اللفظ القرآني يشع جمالاً وأداءً ودلالة . وإن ( كل كلمة من  
كلماته تعطى صورة بيانية ، وكل عبارة تجتمع من كلمات لها صورة بيانية  
تصور المعاني كالصورة الكاملة في تصويرها ، التي تتكون أجزاؤها من صور  
وتتجمع من الصور صورة متناسقة )<sup>(٦)</sup> . ولنأخذ نموذجاً على ذلك :  
قال تعالى ﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من  
كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا  
يصنعون ﴾<sup>(٧)</sup>

والمثل هنا مضروب لتصوير حال مكة وتقريب صورتها في إطار من  
التصوير الذي يعطى للصورة إطارها المكاني الدال .. وبحيث تنطبق الدلالة  
الواردة في المثل .. على المراد إبرازه ، وهو تصوير الأمن والأمان ورغد  
العيش في مكة .. في جانب من جوانب الصورة . جانب زهوة الحياة  
وجماها المتألق واطمئنان النفوس وراحتها .. ولقد عكست الألفاظ هذا  
الجانب من الصورة / المثل ..

فالآية أسندت الأمان إلى القرية ، مما يشعر بالعموم والشمولية .. كما  
يعطى للقرية / المادة ، حركة الشعور الذاتي والإحساس الداخلي بالأمان ..  
فكلمة آمنة : تعني شيوع الأمن والسلام والابتعاد عن الخوف . إن اختصاص  
القرية بالأمن يعني حياة هادئة وادعة يشملها سلام وأمان .. ويتواصل الأداء

---

(٦) القرآن المعجزة الكبرى ص ٩٦ .

(٧) النحل ١١٢ .



التعبيرى القرآنى فى تناسقه الرائع ليوضح الصورة النفسية لأهل القرية الآمنة :  
 فكلمة « مطمئنة » تعكس لنا هذا الجانب النفسى المتعلق بداخل الإنسان  
 ومشاعره ووجدانه .. فثمة سلام ودعة وأمن واطمئنان قلبى .. وفى هذا الجو  
 الآمن الساكن ، يأتى الرزق رغداً هنيئاً .. من مصادره المتنوعة فيضاف إلى  
 الأمن والطمأنينة ، أمن آخر له دخل بالذات ، وهو توفر المثونة والطعام ، بما  
 يجعل القرية سيدة بنفسها ، قوية بما تمتلكه .. هذا هو الجانب الأول من  
 الصورة / المثل ... وهذا الجانب ينطبق على حال مكة تمام الانطباق ،  
 وكل جزئية من الصورة العامة تضاهي جزئية من الصورة المراد التعبير  
 عنها .. والتعبير المثل الحسى أدعى إلى التأثير فى النفس ، وتوضيح الفكرة ،  
 وتوصيل المعنى توصيلاً كاملاً ، يستحوذ على حواس الإنسان ومنافذ  
 إدراكه . إنها حال أشبه شئ بحال مكة ( جعل الله فيها البيت .. وجعلها  
 بلداً حراماً .. وأهل مكة ... آمنون مطمئنون . كذلك يأتهم رزقهم هينا  
 هنيئاً من كل مكان مع الحجيج ومع القوافل .. مع أنهم فى وادٍ قفر جذب  
 غير ذى زرع .. )<sup>(٨)</sup> .

إن المفردات التى قامت بنقل هذه الصورة الكاملة ، متألفة فى  
 معانيها ، منسجمة فى تراكيبها ، متناسقة فى نظمها ، وهى فى ذاتها تحمل  
 الأداء التصويرى المشع فتبرز النعم الإلهية التى منّ الله بها على ساكنى  
 القرية . مما يستوجب الحمد والشكر ...

ولكن واقع القرية يختلف فبدلاً من الإيمان وشكر الله ، جاء الكفر  
 والجحود بنعمه . وهو الجانب الثانى من الصورة العامة .. الصورة / المثل  
 التى وردت بالآية . ولقد عبرت الألفاظ تعبيراً موحياً عن هذا الجانب ..  
 فأوضحت التضاد الذى يكتنف الموقف كله ... ورسمت عن طريق الإيحاء

(٨) الظلال ج ٤ ص ٢١٩٩ .

والدلالة ، الصورة المقابلة في جانبها المعتم ..

ف نجد مفردة ( أذاق ) تعبر عن الضرر الذى مس نفوسهم ... والألم الذى احتواهم خاصة وأن التقابل جاء فيما يرتبط بالحياة نفسها ، وهو الجوع وافتقاد المثونة .. مما يعنى أن العقاب جاء على قدر فعلهم ، ففى أثناء الأمن والرزق الوفير جنح سكان القرية إلى الغرور ونكران الفضل ، وتصوروا أن ما هم فيه جاء من أنفسهم . ففسوا الله ، فأنساهم أنفسهم .. ولننظر إلى الأداء التصويرى الرائع الذى يشع من كلمة « أذاق » ، لقد جعلت المفردة الألم وأثره ، والضرر وشدته ، فى مقام الطعام المر ، الذى ينفر منه الإنسان بمجرد تذوقه ... إن الصورة التشبيهية ، توحى بقسوة الألم ، وبأن الناس لا يملكون إلا أن يتجرعوا الألم ... لافتقاد الأمن والأمان .. لإنهم فى مقام المضطرين على مداومة الحياة يتجرع غصص الألم والمعاناة . ويرفد المعنى تعبير بيانى جميل يوضح الإذاقة ، ودلالاتها .. ففى عبارة ( لباس الجوع والخوف ) تجسيد كامل مرئى وملموس لكل من الخوف والجوع .. إنهما - الجوع والخوف - لدوامهما يشبهان اللباس الذى يحيط ويشمل الإنسان .. وكأن هذه الإحاطة لا فكاك منها .. فهى مستمرة ومتجددة معا .. مما يعطى المفردة « أذاق » استمرارية الشعور بالألم والمعاناة .. « فالذوق » أعمق أثراً فى الحس . ويتداخل فى التعبير استجابات الحواس . ويتحول المس من حركة اللمس إلى حركة متغلغلة فى النفس . يقول الزمخشري ( أما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف ، فلأنه لها وقع . عبارة عما يفشى منهم ، ويلابس ، فكأنه قيل ما غشيه من الجوع والخوف )<sup>(٩)</sup> لقد أوضح التعبير أن الألم مسّ الجسم وأمضّهُ بافتقاد الطعام وبسطوة الجوع . كما تغلغل فى النفس بذهاب الأمن وبشدة الخوف ..

---

(٩) الزمخشري ج ٢ ص ٣٤٦ .

فتضافر التعبير بالإدافة والتعبير باللباس لتوضيح الصورة التي أصبح عليها سكان القرية بعد أن كفروا وجحدوا أنعم الله ....

واختيار الألفاظ يتناسق مع الموقف المراد التعبير عنه .. مما يساعد على إكمال معالم الصورة الحسية أو المعنوية .. فكلمة « حرث » مثلاً ، تناسقت تماماً مع دلالة الحالة الزوجية ، ومع الصورة الحسية المادية التي جمعت الموقف كله ، مع إحياء عفيف يقتضيه المقام .

قال تعالى : ﴿ نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ، فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أُنَّى شِئْتُمْ ﴾ البقرة : ٢٢٣ فاللفظ ، فيه كناية موحية لطيفة عن ملابس زوجية ، وفيه تصوير دقيق للعلاقة بين الزارع وأرضه والزوج وزوجته في مجال خاص جداً . وفيه إبراز لنتيجة العلاقة الموحى بها ، فثمة نبت يخرجها الحرث ، ونبت ينتج عن العلاقة الزوجية وفي كليهما عمران وفلاح ..

ونقرأ قوله تعالى ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ لِمَنْ لُيْطُنْ ﴾ .. النساء : ٧٢ فنجد صورة التبطئة مرسومة بثقلها وبطئها وجرسها في كلمة ( ليططن ) . ولعل التكوين الحرفي للكلمة بما فيه من حركات مشددة ، وحركات تتراوح بين الضم والكسر والفتح ، يعطى الثقل في النطق والأداء ، مما يعكس الحرف نفسه حركة البطء الشديدة التي يوصف بها هؤلاء المتباطئون .. وترسم صورة دقيقة لتنوع الحركة .. وتعثرها ..

ونقرأ قوله تعالى ﴿ وَهُمْ يَصْطَرَّخُونَ فِيهَا ، رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلْ .. ﴾ فاطر : ٣٧

فنجد اللفظ ، بما يتضمنه من حروف شديدة .. يصور الحالة تماماً .. فالآية وردت في سورة فاطر لبيان مآل الذين كفروا ببرهم فهم في نار جهنم يتصارخون ، ويستغيثون قائلين ربنا أخرجنا لنعمل صالحاً ( ويرى القرطبي :

أى تؤمن بدل الكفر ، ونطيع بدل المعصية ، وتمثل أمر الرسل (١٠) فلفظة ( يصطرخون ) يعكس حال الكافرين في جهنم ، حيث يعلو صوت غليظ محشرج مختلط الأصدااء متماوج من شتى الأرجاء .. إنه صوت النبوذيين وجرس اللفظ نفسه يلقي في الحس هذه المعاني جميعا . إن الإيقاع الصاخب الذى يوحى به اللفظ يعكس الحالة تماما ( كما تلقى إليك ظل الاهمال لهذا الاصطراخ الذى لايجد من يهتم به ، ونلمح من وراء ذلك كله صورة ذلك العذاب الغليظ . وحين يستقل لفظ واحد بهذه الصور كلها يكون ذلك فناً من التناسق الرفيع ) (١١)

إن اللفظ القرآنية ، تأتلف مع أصوات الحروف ، وتتسق معها في الأداء الموسيقى ، مما يجعلها تشيع قدراً من التأثير الوجدانى الواضح في النفوس . وربما كانت حركة المفردة فيها ثقل وتراكم صوتى شديد .. مما ينفر من استخدامها لغويا ، ولكنها إذا وردت في القرآن اتخذت السمات البلاغى المعجز ، وتناسقت مع الأداء التعبيرى الكلى . وحملت المعنى والدلالة حملاً جمالياً مؤثراً .. ولقد أدركنا ذلك فيما سبق .. ولكننا سنقف أمام مفردة غريبة ، لم يحسن استخدامها إلا حين وردت في القرآن الكريم . إنها كلمة ( ضيزى ) ، في قوله تعالى ( تلك إذن قسمة ضيزى ) (١٢) وسياق المفردة ورد في الرد على الكفار وتوبيخهم حين ادعوا أن الملائكة بنات الله .. قال تعالى : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ﴾ ومفردة « ضيزى » تعنى لغويا .. الجور . والفعل : ضاز أى جار .. واستخدامها نادر وغريب .. كقول الشاعر ..

(١٠) صفوة التفاسير ج ٢ ص ٥٧٨ .

(١١) التصوير الفنى ص ٩٢ - ٩٣ .

(١٢) النجم ٢٢ .

ضازت بنو أسد بحكمهم إذ يجعلون الرأس كالذنب  
وورود الفعل فيه إبهام ، فما بالك بالمفردة نفسها . ولكن الكلمة جاءت  
منسجمة تماما مع السياق والأداء . فسورة النجم جاءت في آيات موجزة ،  
ذات فواصل متكررة على حرف واحد ، مما جعلها مترعة بجو من الإيقاع  
الشامل ، الذى يحتوى الحرف واللفظ والجملة ، فجاءت الكلمة متناسقة مع  
هذا الأداء التعبيرى المنغم ، كما جاء متلائمة مع السياق .

يقول الرافعى : « فكانت غرابة اللفظ أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه  
القسمه التى أنكرها ، وكانت الجملة كلها كأنها تصور فى هيئة النطق بها ،  
الإنكار فى الأولى ، والتهكم فى الأخرى ، وكان هذا التصوير أبلغ ما فى  
البلاغة .. » (١٣)

إن جمال القرآن اللغوى ظاهرة اختص بها القرآن فى أدائه التعبيرى  
والتصويرى فى الحرف والكلمة والعبارة والسورة . ومن شأن هذا الجمال  
اللغوى والنظام الصوتى أن يسترعى الأسماع ويثير الانتباه ويحرك الوجدان  
ويعزج بين الدين والفن القولى مزجا يختلط بمدارك الإنسان ووجداناته .

---

(١٣) انظر كتاب التبيان فى علوم القرآن للصابوني ص ١٠٧ .

## الفصل الثاني

### الترادف والدلالة اللفظية

## الترادف والدلالة اللفظية

لعلنا من خلال ما درسناه سابقاً ، ندرك أن المفردة القرآنية لها جمالها المميز ووقعها النغمي وتآلفها المعجز مع العبارة والسياق والمعنى المراد .. بحيث نعجز عن إيراد كلمة مرادفة لها ..

وهنا يجب أن ننبه إلى أن قضية الترادف قد شغلت كثيراً من المهتمين بشئون اللغة العربية وسر فصاحتها .. والمرجع في هذا البيان القرآني نفسه . بحيث يجب أن يكون قوله هو الفیصل الحاسم في هذه القضية . فهو يهدي إلى سر الكلمة بحيث لا يقوم مقامها كلمة سواها من التي يُظن أنها مرادفة . فالألفاظ القرآن لا يقوم مقامها لفظ آخر مهما كان فصيحاً أو بليغاً .. ولقد (شهد التتبع الاستقرائي لألفاظ القرآن في سياقها . أنه يستعمل اللفظ بدلالة معينة لا يمكن أن يؤديها لفظ آخر ، في المعنى الذي تحشد له المعاجم وكتب التفسير عدداً قَلَّ أو كثر من الألفاظ)<sup>(١)</sup> ولنأخذ نماذج من هذه الألفاظ .

### الرؤيا والحلم

فلقد وردت الرؤيا الصادقة في عدة آيات ، وهو في ورودها .. لا يمكن أن تكون بمعنى الحلم .. لأن الحلم يتسم بالخلط والتشوه .. ومن ثم فمن يرى الترادف بينهما ، يكون قاصراً عن إدراك دلالة الرؤيا في القرآن ودلالة الحلم أيضاً .. ولقد وردت الرؤيا في مواضع منها ..

قال تعالى في سورة يوسف :

﴿ ... أفترى في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون ... ﴾<sup>(٢)</sup>

(١) الإعجاز البياني للقرآن د. بنت الشاطئ ص ١٩٨ .

(٢) يوسف آية ٤٣ .

وهى رؤيا الملك ، وهى صادقة الالهام.. قد لا يدركها حقيقة ، وقد لا يدركها المحيطون به ، الأمر الذى جعلهم يصفونها بأنها « أضغاث أحلام » ولكن يوسف عليه السلام كشف حقيقة هذه الرؤيا الصادقة .. وكان كشفها إحدى معجزاته .. ووسيلة إلى تمكينه فى أرض مصر .

ولقد جاءت الرؤيا مصحوبة بالأنبياء .. ورؤية الأنبياء صادقة ينتفى فيها الخلط والتشويه الذى هو من خصائص الحلم .  
قال تعالى فى رؤيا إبراهيم عليه السلام :

﴿ وناديناه أن يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾<sup>(٣)</sup>

ورؤيا إبراهيم عليه السلام رؤية قرية من الوحي . إنها رؤية الإيمان والابتلاء فى حادثة الذبيح إسماعيل عليه السلام . والحكمة فى هذه القصة - كما ورد فى كتب التفسير - أن إبراهيم أتخذه الله خليلاً فلما سأل ربّه الولد ، ووجه له ، تعلق شعبة من قلبه بمحبة الولد ، فأمر بذبح المحبوب لتظهر صفاء الخلّة ، فامتثل أمر ربّه وقدم محبته على محبة ولده . والرؤيا وقصتها تعليم للمؤمنين كيفية الانقياد لله سبحانه انقياداً خالصاً . وقد صدقت الرؤيا .. وفدى الله إسماعيل بذبح عظيم ..

كما وردت الرؤيا فى قصة يوسف .. بل تعتبر هذه الرؤيا التى رآها يوسف محور القصة كلها ، وحولها تشابكت الأحداث .. وتعددت ..  
قال تعالى فى سورة يوسف حول رؤيا يوسف ..

﴿ قال يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً .. إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾<sup>(٤)</sup>

(٣) الصفات ١٠٤ - ١٠٥

(٤) يوسف ٥ .



وإذا كان يوسف عليه السلام - في بداية القصة - لم يدرك مغزى الرؤيا .. فإن يعقوب عليه السلام قد فهم من رؤيا يوسف أن الله يبلغه مبلغاً من الحكمة ، ويصطفيه للنبوّة ، وينعم عليه بشرف الدارين .. ولقد خاف عليه من أخوته ، ومن ثم طلب إليه ألا يقصص رؤياه .. ولقد قام بناء القصة في السورة الكريمة على تحقيق تلك الرؤيا .. ولقد تحققت بعد ضروب من المحن والشدائد مرّ بها يوسف عليه السلام . حتى تمكن في أرض مصر .. نبيا كريما .

قال تعالى :

﴿ .. وقال ياأبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي

حقا .. ﴾ جزء من آية ١٠٠

في هذا المجال نذكر ما قال ابن سينا عن الرؤى الصادقة وعن أضغاث الأحلام يقول ( إن هناك نوعاً من الأحلام ينشأ من اتصال النفس بالملكوت الأعلى .. حيث تتلقى النفس الإلهام ، ويكون ذلك بمثابة الإنذار أو الإخبار ، بما سيكون وهذه هي الرؤيا الصادقة .. أما الأحلام الناشئة عن الإحساسات البدنية فهي أضغاث أحلام .. أى رؤى كاذبة )<sup>(٥)</sup>

ومن ثم فإن الرؤيا كما وردت في القرآن .. تأتي في مجال الصدق الكامل .. لأن صاحب الرؤية يتسم بشفافية قلبية . يقدر بها وعن طريقها أن يتلقى في منامه .. نوعاً من الإلهام الذي يجد في النفس تربة صالحة .. تثمر معاني صادقة تكشف عن أشياء غيبية قد تقع في المستقبل .. وهي في هذا الجانب علامة على اصطفاء الشخص صاحب الرؤية .. وفي هذه الحالة نعيد ما قلناه عن أن الرؤيا الصادقة .. جاءت في مجال الحديث عن الأنبياء .. كما جاءت قليلة عن أشخاص عاديين .. هذا الاختيار النفسى للشخص الذى

(٥) القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته . أحمد محمد جمال ج٤ ص ٢٧ .

يتلقى الرؤيا الصادقة يعززه حديث رسول الله ﷺ ( الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة .. ومن رآنى فى المنام فقد رآنى فإن الشيطان لا يتمثل فى صورى ) .

ولعلنا نلاحظ أن مفردة « الصالحة » تكشف معنيين رئيسيين فى هذا المجال . الأول أنها تعنى معنى الصدق ، بحيث تصبح الرؤيا الصادقة .. فالحديث يؤكد على هذا المعنى . والثانى : أن مفردة « الصالحة » تكشف عن النفس المؤمنة الصافية الخالصة من عوالق الدنيا ومفاسدها بحيث تصبح مهياً لتلقى الألهام كما يراه ابن سينا ..

ويرى ابن خلدون فى تأويل الحديث أن ( معناه بيان الفرق بين الاستعداد البشرى العام لمطالعة الحقائق الغيبية فى لحظة تتجرد فيها النفس الناطقة عن المواد الجسمانية بالنوم .. وبين الاستعداد النبوى الخاص لمطالعة تلك الحقائق بالإنسجام عن حالة البشرية إلى حال الملكية عند الوحي فى النوم أو اليقظة .. وإن نسبة ذلك الاستعداد البعيد إلى هذا الاستعداد القريب كنسبة واحدة إلى ستة وأربعين )<sup>(٦)</sup>

إذن فإن مفردة الرؤيا .. حين وردت فى القرآن فإنهى تعنى الرؤيا الصادقة .. أما الأحلام فإنها تعنى الاضغاث أى الأخلاط والخلط الناتج عن الإحساسات البدنية .. إذن فمفردة الرؤيا جاءت فى الرؤيا الصادقة .. كما وردت فى صيغة الإفراد دلالة على التميز والصفاء .

أما « الحلم » فقد وردت فى مواضع توحى بالخط والتشوش .. ولقد جاء رد المحيطين بعزير مصر تعليقاً على طلب تفسير رؤياه هكذا .  
قال تعالى :

---

(٦) المصدر نفسه ص ٢٨ .

﴿ قالوا أضغاث أحلام ... ﴾

والمعنى أنها أخلاط كاذبة لاحقيقة لها . قال الضحاك : أحلام كاذبة ..  
وسياق ورود كلمة الأحلام في القرآن ... يعني الخلط والتشوش .. ومن ثم  
تصبح الدلالة واحدة ومتكررة ..

قال تعالى عن موقف الكافرين من محمد ﷺ :

﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراء بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما  
أرسل الأولون ﴾<sup>(٧)</sup>

والأضغاث بمعنى أخلاط .. وهي جمع مفردها ضغث ، وهي بمعنى  
الأهاويل التي يراها الإنسان في منامه . وهذا القول موجه إلى القرآن إذ اعتبره  
الكافرون أخلاطاً منامية ، وتعددت أوصافهم دلالة على حيرتهم وشكهم .  
( ولقد حكى القرآن هذه الأقوال لإظهار اضطرابهم وبطلان أقوالهم فهم  
متحيرون لا يستقرون على شيء )<sup>(٨)</sup>

... وهكذا يتضح لنا أنه ليس هناك ترادف بين الرؤيا والحلم .. كما  
يرى البعض ، وكما تقول المعاجم ، فاستقراء الآيات القرآنية التي وردت  
فيها المفردتان تؤكد أن دلالة الكلمتين مختلفتان ، وأنه لا ترادف بينهما  
البتة .

ومن المفردات التي يظن أن بينها ترادفا كلمتا : الخشية ، والخوف .  
تقول الدكتور عائشة عبد الرحمن [ وعجيب أمر هذا البيان المعجز في اطراد  
نسقه ولطف دلالته وباهر أسراره . كل خشية فيه على اختلاف صيغها  
لا تكون إلا في الحياة الدنيا لا في الآخرة . إذ الدنيا هي مجال الابتلاء . وإذا  
تعلقت الخشية في القرآن بأمر يُحْشَى ، فإنه الغيب ، والساعة ، واليوم الآخر

(٧) الأنبياء ٥ .

(٨) صفوة التفاسير ج ٢ .

أو العنت والكساد ، والإملاق ، وضياح اليتامى والإرهاق طغياناً وكفراً .  
وإذا تعلقت الخشية في القرآن بذاتٍ لا بأمر فإنها لا تكون إلا الخشية لله  
وحده دون أى مخلوق .. [١]

والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة قال تعالى في سورة يس ﴿إِنَّمَا أَتَذْكُرُ  
مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ [٢]

فالإنذار يفيد وينفع الذى يتصف بخشية الله ... وهو من آمن بالقرآن وأسند  
الأمر كله لله . وخشيته دون أن يراه .. قال أبو حيان : وخشى الرحمن : أى  
المتصف بالرحمة ، والرحمة تدعو إلى الرجاء ، لكنه مع علمه برحمته  
يخشاه جل وعلا خوفاً من أن يسلبه ما أنعم به عليه .

وقال تعالى : ﴿.. ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [٣] فالجزاء الحسن من  
جنت تجري فيها الأنهار .. إنما جاء نتيجة العمل الصالح .. والخوف من  
الله وتقوى الله والبعد عن المعاصى .. فالخشية إذن تكون عن يقين صادق  
بعظمة من نخشاه .. أما الخوف .. فقد يحدث بناء عن ضغط أو تسلط أو  
إرهاب .. ومن ثم تصبح الدلالة متغايرة ، فلا يقوم الترادف بينهما .

ومثل ذلك في مفردتى .. الخشوع والخضوع ...

فالخشوع نابع من انفعال صادق بجلال من نخشع له .  
أما الخضوع فقد يكون نفاقاً وتزلفاً ، وخوفاً ..

وكلمة الخشوع تأتى لتوضح هذا المعنى .. وترد متسقة في الآيات  
الكريمة .. فكل خشوع في القرآن الكريم فهو لله سبحانه .. ومشتقات

(٩) الإعجاز البياني للقرآن ص ٢٠٩ .

(١٠) يس ١١ .

(١١) البينة ٨ .

الفعل خشع ترد بكثرة في آيات قرآنية لتوضح حال المؤمنين وتصف طبائعهم ، وإيمانهم ، وتقواهم وطاعتهم .. مما يعكسه لفظ « خشع » حيث هى من ألفاظ القلوب الصافية .

قال تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ (١٢)

ففلح المؤمنون وسعادتهم إنما هو أثر طيب لما يتصفون به من خشوع لله وتقوى ذلك الخشوع الذى يملك قلوبهم ويحتوى مشاعرهم فتفيض رقة وعلوبة وصفاء .. وقد فسر ابن عباس الكلمة بالخوف .. عن ابن عباس : خاشعون : خائفون ساكنون أى هم ساكنون متذللون .. في صلاتهم لجلال الله وعظمته .. فالخشوع درجة أعلى من الخوف وأنقى من الخضوع لأنه شعور صاف نابع من القلب متجه إلى الخالق مباشرة في رجاء متذل ... بالرضى والجزاء الحسن .

وإذا جاء الخشوع ليصف الكفار ، فإنما ذلك يعنى ، أن الحدث المحكى إنما يكون في اليوم الآخر .. وليس في الحياة الدنيا كما لمسنا في وصف المؤمنين .

قال تعالى : ﴿ .. وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مردّ من سبيل . وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى ﴾ (١٣) .

فالكافرون حين رأوا العذاب الشديد طلبوا الرجوع إلى الدنيا لهل ما رأوا وخرج الاستفهام إلى غرض بلاغى وهو التمنى .. وهو يعنى الاستحالة مما يبين وطأة العذاب ، وهوله على النفوس . ومن ثم فهم يبدون وقد عرضوا

(١٢) المؤمنون ١ - ٢ .

(١٣) الشورى ٤٤ - ٤٥ .

على النار في تضاًؤل وصغار ، خائفين متذللين يسارقون النظر خوفاً وفرعاً..  
فالحشوع هنا ، حالة وجدانية وصف بها الكافرون فى اليوم الآخر ..

ومن هنا فإن الكلمة القرآنية تأتى فى مكانها بحيث لا يمكن أن يحل  
مكانها كلمة أخرى قد يظن أنها ترادفها .. إذ إنها تحمل الدلالة المعنوية  
للمفردة حملاً لا تأويل له .. ولا تبديل .

تقول الدكتور عائشة عن خشوع المؤمنين فى الدنيا ، وخشوع الكفار  
والمجرمين فى الآخرة أن [ .. سِرُّه البىائى هو أن خشوع الكفار لا يكون إلا  
بعد أن يأتى اليوم الآخر الذى يوعدون فىخشعوا خوفاً ورهبة وذلة ، على  
حين يخشع المؤمنون فى الدنيا ، عن صدق وإيمان وتقوى وخشية لله ] ..  
وهكذا تصبح للمفردات القرآنية أسرارها ودلالاتها .. المميزة .



## الفصل الثالث

### الصورة البيانية والأداء التصويري القصصي



## الصورة البيانية والأداء التصويرى القصصى

والصورة البيانية إحدى جماليات التصوير القرآنى ..  
فالبيان وسيلة تصويرية توضح المراد من المعنى ، فى أشكال تصويرية مختلفة .. ولقد تعددت ألوان البيان ، من تشبيه وتمثيل واستعارة وكناية ومجاز .. ولكن هذا التعدد المدرسى .. يقف عند حدود أطراف البيان .. بحيث تقف الصورة ساكنة .. قد يلفها الغموض أحياناً ، أو الوضوح السطحي أحياناً أخرى ، وقد يكتنفها التعقيد فى نواح أخرى ..

أما الصورة البيانية فى القرآن فهى عالم بأكمله .. زاهر بالمعانى والأخيلة والوجدان ، والمشاعر النفسية ، تتحرك الصورة البيانية فى أداء تعبيرى معجز ، ترفدها الحركة ، واللون ، والصوت ، والصورة فى تضافر تام .... ولتأخذ نموذجاً للصورة البيانية .... والصورة التى نقدمها تتناول صفة مذمومة وهى الطمع .. وقد وردت فى نسق قصصى . مما أحالها إلى حركة مشحونة فاعلة .

قال تعالى :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ . وَلَا يَسْتَشِيرُونَ . فطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ . فَأَصْبَحُوا كَالصَّرِيمِ . فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ . أَنْ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنَّا كُنْمْ صَارِمِينَ . فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ . أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ . وَغَدُوا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ . فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ . بَلْ لَحْنُ مَحْرُومُونَ . قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ . قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ . قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ . عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ . كَذَلِكَ

## العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴿١﴾

وسورة القلم مكية ، بل هى من أوائل السور المكية . وفى السورة بيان واضح عن العقيدة . وعن محمد .. فالله يحتضن رسوله والفئة المؤمنة معه ، ويواسيه ويشئى عليه . كما تبرز الآيات القيم الأخلاقية الكريمة ، وتطمئن قلوب المستضعفين ، وتحميمهم من جيروت الأعداء والأغنياء من كفار مكة . وتعدهم جنات النعيم ...

والآيات الكريمة تتناول فى إطار الاحتضان والتثيت والمؤازرة ، قصة أصحاب الجنة . وقد ضربها الله مثلاً لسذاجة التفكير ، وشراسة الطمع وغلواء البطر بالنعيم .. وهى من هذا الجانب انعكاس .. بالمثل . لحالة أغنياء مكة وكفارها من محمد والفئة المؤمنة الضعيفة . وَرَبَطَتْ بين غرور كفار مكة وتبهمهم بالمال والولد .. وبين قصة أصحاب الجنة .. لِيَحْدُثَ التأثير وليصل المعنى المراد إلى هؤلاء المتبطرين بغناهم وعصبيتهم . فعاقبة البطر والطمع وخيمة ، كما أن منع الخير عمن يستحقه ، والاعداء على حقوق الغير ، نتائج وخيمة أيضا .. وما المال والبنون إلا ابتلاء واختبار ، مثلما أختبر وابتلى أصحاب الجنة بجنتهم .

ومن حيث الإطار القصصى ، فإننا نلمح هذا التفكير البسيط الذى يسيطر على أصحاب الجنة .. إنه تفكير يتسم بالسذاجة .. ومحاولتهم استخلاص الثمر لأنفسهم محاولة بسيطة ، وسلوك يتسم بالسطحية . ولعل هذا يعود إلى نفسية الناس . حيث إن أهل مكة فى بداية الدعوة الأولى لم تكن نفوسهم شديدة التعقيد .. فلاءمت البساطة فى العرض ، ببساطة تفكيرهم الجانح إلى العناد .

وتمضى القصة فى نسق متسلسل ..

لقد عقد أصحاب الجنة عزمهم على أن يجنوا الثمار فى بكرة الصباح ،  
والعيون نائمة ، والسكون مطبق ، وأقسموا ألا يتركوا شيئاً للمساكين  
والاحتاجين . وباتوا ليلهم ، وفكرهم الساذج يشغل وجدانهم ويستحوذ  
على مشاعرهم .. واطمأنوا لما يبتوه .

ولكن الله يدبر أمراً غير الذى يدبرون ... جزاء على بطرهم بالنعمة  
ومنع الخير عمن يستحقه .. وكانت المفاجأة التى يتوقعونها ... فطاف على  
الجنة طائف قلع نبتها وأسقط ثمرها وجفف أوراقها وأعوادها .. فبدت فى  
العيون كالهشيم اليابس .. لقد حرموا الجنة وما فيها .

ويستيقظون مبكرين ، كل ينادى على الآخر ، فى عجلة من أمرهم ،  
يودون الحصاد فى غفلة عن الصوت . ويمضون فى سكون وخفوت ، فلا  
حركة تنبئ عنهم ولا صوت يصدر منهم .. كأنهم أشباح .. وهسيس  
الصوت الذى لا يبين ينفلت من الشفاه المطبقة فى رجفة فعل .. يشئ بحرمان  
أى مسكين من دخول الجنة ، أو أخذ شئ من ثمارها ..

وبدا لهم أنهم قادرون على منع العطاء والخير .. وسرعان ما فوجئوا  
بما رأوا .. فلقد رأوا عجباً .. ولم يصدقوا أن الجنة الحافلة بالثمار ، المترعة  
بالأوراق الخضراء الندية ، الفواحة الزهر .. الجارية الماء .... قد بدت فى  
عيونهم هشيماً تذروه الرياح .. وينفلت من داخلهم صوت الخوف ، الراشح  
بالدهشة ، الميال إلى عدم التصديق ، المأخوذ بالمفاجأة

- لقد ضللنا ، ما هذه بجنتنا ! أنكون ضللنا الطريق ؟!

ولكن الواقع ينبئ بالحقيقة ، والعين لا تخطئ الرؤية .. فلقد وضع  
الأمر .. فما أخطأوا الطريق .. ولكنهم أمام الحقيقة ... محرومون مما  
عقدوا العزم عليه . محرومون من ثمار كانت يانعة ، وحصاد كان وفيراً ..

وفى غمرة الحدث العنيف ، وفى هول المفاجأة يقبل بعضهم على بعض يتلاومون .. ويدور الحديث كاشفا نفوسهم .. وينبرى أوسطهم قائلاً :

- تلك هى جنتكم ، حرمكم الله منها قبل أن تحرموا الفقير المحتاج . ولطالما قلت لكم ، ونهيتكم أن تسبحوا الله ، وتذكروه ، وتحسنوا إلى عبده .. ليتكم مضيتم فى طريق أبينا الشيخ ، الذى ما حرم يوماً مسكيناً ولا منع خير الله عن محتاج ..

وفى نبرة واحدة ، خرج الصوت من صدورهم يحمل حزناً عميقاً ، وندماً كاوياً .. وانجهوا إلى الله .

- تنزهت ياربنا عن كل ظلم ، فما حاق بنا نستحقه ، فلقد ظلمنا أنفسنا بأيدينا .

وبدا كل واحد منهم يلقي بتبعية ما حدث على غيره .. لإنهم فى فوضى العتاب .. يهللون التهم حيثما ترد ، وكأنما يتنصلون من جرم عالق بهم كالعلقة . وكل يلوم الآخر ، على ما يأت من رأى . فما من واحد وقف ليردع الآخر بالفعل عما ينوى ..

وتخف حدة اللوم ، ويدرك الجميع أن العاقبة السيئة جاءت نتيجة الخطيئة الكبيرة التى ارتكبوها .. ويعترف الكل بما فعل .. فلعل فى هذا الاعتراف وسيلة إلى أن يغفر الله لهم .. ويعوضهم عن جنتهم التى بادت ، وضاعت .

- عسى الله أن يبدلنا خيراً منها .. إننا نرغب فى عفوه وغفرانه .

وهكذا فإن العذاب الذى نزل بأصحاب الجنة ، ينزل بغيرهم ، ماداموا يمتنعون خير الله ، ويتبهون بما لديهم من مال وبنين .. وسينزل العذاب بقريش ... وليعلم مشركو مكة أنهم قد وقعوا فى بلاء كبلاء

أصحاب الجنة .. وليحذروا بلاء الله يوم القيامة .

ولقد ساق الله هذه الآيات كتجربة من واقع البيئة .. ومما هو متداول بينهم من القصص . فيربط - كما يرى سيد قطب في الظلال - بين سنته في الغابرين وسنته في الحاضرين - ويلمس قلوبهم بأقرب الأساليب إلى واقع حياتهم ، ويشعر المؤمن بأن مايروونه على المشركين من كبراء قريش من آثار النعمة والثروة إنما هو ابتلاء من الله ، له عواقبه . وسنته أن يبتلى بالنعمة كما يبتلى بالبأساء . ولقد عبرت الصورة البيانية تعبيراً صادقا عن الحالات المادية والنفسية التي اشتملت عليها القصة .

ف نجد في الصورة البيانية مثالا للطمع المترسب في النفس .  
قال تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَشْنُونَ ﴾ القلم : ١٧ : ١٨  
والصورة البيانية هنا تدرج تحت مايسمى بالتشبيه التمثيلي حيث يصبح التشبيه صورة كاملة ، لحال المشبه والمشب به .. فالصورة البيانية تشبه حال الطاغين من قريش ، المستغنين بالمال والبنين وقد ملأ قلوبهم الطمع مما أدى بهم إلى العناد مع الله ، بحال أصحاب الجنة الذين اغتروا بمالهم وسيطر عليهم الطمع وظنوا أنهم قادرون على فعل مايريدون . دون مراعاة لمشئته الله وما يجريه الله على عباده ...

وجمال التشبيه هنا أنه جاء للتقريب . ذلك لأن حال الكفار أشد عتوا وأبلغ غرورا . والصورة البيانية تكشف الحالة النفسية ، الدالة على تمكن الفعل منهم .. هذا التمكن الذي عكسته أدوات التوكيد في لفظه [ ليعصرمنها ] .. فضلا عن أن المفردة القرآنية وفَّت بالمعنى كاملاً ، فهي أبلى من حيث الدلالة من المعنى المرادف لها وهو القطع . لأن الصرم قطع من الجذر فهو أقرب إلى القلع . وهذا الحرص والإصرار أنساهم الله ،

وجعلهم متلهفين إلى الفعل . مما أوقعهم في خطأ الحسبان والتصور .

وثمة صورة بيانية تتضاد مع الصورة الأولى ..  
فالصورة الثانية تصور قدر الله الذى حل بهم .. وهو قدر لايفلت الظالمون منه ..

قال تعالى : ﴿ فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم ﴾ . القلم : ١٩ ، ٢٠

والطائف السريع قد يكون ريحا صرصرأ عاتية . وهو قد تم بأمر الله ...  
ويوضح التشبيه الحالة التى آلت إليها الجنة . فالأشجار الخضراء ، والأوراق اليانعة ، والثمار الناضجة ، قد تحولت جميعها فى لحظة قدرية عالية إلى أخشاب متراكمة ، فقدت جمالها وثمارها . ولأن الأمر جاء بغتة . فقد وقف التشبيه عند أطرافه الأساسية وهو المشبه والمشبه به ، وأدت « الكاف » دورها فى تصور الذهن للحالة التى آلت إليها الجنة .

ثم صورت الآيات الكريمة صورة الحرص والطمع ومنع الخير عن يستحقه ، فى صورة نفسية بلغت حد الإعجاز ...

قال تعالى : ﴿ فتنادوا مصبحين . أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافتون . ان لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ﴾ (١) .

فثمة اجتماع على أمر خبيث . ولأنه أمر خبيث ، فلقد اتفقوا عليه فى تخافت وإسرار . ومن ثم تصبح كلمة ( يتخافتون ) الأداة التصويرية الفاعلة التى تحمل معنى الكناية البلاغية ، لبيان أمرهم النفسى وحرصهم الخبيث . ذلك أن الامتناع عن الخير لا يكون إلا بإصرار النفس ، والتفاهم فى سرية ،

---

(٢) القلم : ٢١ — ٢٤ .

والبعد عن الجهر . وتكمل الآية الصورة حين تبين أنهم لا يمتنعون العطاء فقط عن المحتاج بل يمتنعونه من مجرد الاقتراب والدخول .. في أداء يتضمن النهي المؤكد والإصرار عبر استخدام النفي والتوكيد .

ويرفد المعنى ، ماورد في الآية الكريمة ﴿وَعِدُوا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾<sup>(٣)</sup> فهم قاصدون القطع ، ومانعون الخير . وكلمة « الحرد » تعني المنع والتشدّد فيه .

وتأتى المفاجأة فتنبه القلوب الغافلة والضمائر النائمة .. قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾<sup>(٤)</sup>

فالمفاجأة بالحرمان كانت أشد وقعا . فأصابتهم بالحيرة والضلال . ثم حين يتقنوا من الأمر أحسّوا بضلال آخر معنوى أشد فتكا في النفوس وتأثيراً في القلوب .. وتأكدوا أن الله قد قدر حرمانهم . وما قدره الله نافذ . وهو ما يفيد حرق الاضراب « بل » . وكأنه يُشعر بأنهم قد شعروا بالأسف حين حرموا فضلو .. ولعل هذا الأسف يكون مدخلا لهم إلى الهداية ..

ومن هذا المنطلق تكون العبارة التي تلفظ بها أوسطهم ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾<sup>(٥)</sup> .. قد أدت المراد منها في إكمال الصورة . فالاستفهام يتضمن التوبيخ ، وكأنما يوحى بأن صوت الأوسط كان فيه تحذير مما يرمعون على فعله . ولكنهم لم يأبهوا بما قال . فجاء التوبيخ لهم ، على أنهم لم يسبحوا الله ويقدسوه وينزهوه ويعرفوا أنه القادر فوق عباده .

ويأتى الاعتراف المصحوب بالندم والحسرة . قال تعالى :

---

(٣) القلم : ٢٢ .

(٤) القلم : ٢٦ ، ٢٧ .

(٥) القلم : ٢٨ .

﴿ قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ﴾<sup>(٦)</sup>

فلقد أدركوا الغفلة التي وقعوا فيها . فقالوا - كأتما يعلنون إيمانهم - سبحان الله تقدس وتنزه .. لقد رجعوا إلى الله ، ولكنه رجوع ناقص ، فلا يكتمل إلا بالتوبة النصوح .

وبعد حصول الندم واستشعارهم للذنب الذي ارتكبهوه ، أقدم بعضهم على بعض في تلاوم . والتلاوم يعنى أنهم أحسوا بعبء المعصية ينمو في داخلهم ، فبدأ كل منهم يلقي بهذا العبء النفسى على الآخر .. وأدركوا في النهاية أن السبب وراء ذلك كله هو الطغيان والظلم ، فالطغيان يجعل صاحبه - في ظنه - قادراً ، ومستغنياً .. مصداقاً لقوله تعالى في سورة العلق : ﴿ إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى . ﴾

لقد عادت الضمائر الغافلة ، وبدأ الخوف يدب في النفوس ، واستشعار إيماني بدأ ينساب إلى الداخل ... وذلك بعد أن خلعوا رداء الطغيان .. وأقبلوا على الله راغبين في رضاه وعفوه ﴿ إنا إلى ربنا راغبون ﴾<sup>(٧)</sup> ...

يقول المرحوم الشيخ أبو زهرة :

( نرى في هذه الآيات الكريمة المصورة لتلك القصة التي تشتمل على العبرة الواضحة ، فيها تتلاقى المعاني . وكل معنى يردف لما سبقه ، ومقدم لما يليه في تأخ بين جزئياته ، وتعانق مع كلياته . كل جزء من الكلام يوعز لما يليه .. وفيها الألفاظ مؤتلفة في نغم يهز النفس ، وتآلف بين الألفاظ ، مفردة ، وجملا ، وفيها تصوير للنفس الإنسانية حين يدخل إليها الطمع ،

(٦) القلم : ٢٩ .

(٧) القلم : ٣٢ .



ومع الطمع الشح ، وإذا سكن الشح قلبا دخل منه الظلم وهضم الحقوق ... ولكي ينجو المؤمن عليه أن يراقب مداخل الشح ... فإن سدّ طرقها .. فقد فاز كما قال تعالى : ﴿ ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون ﴾ (٨) الحشر : ٩

لقد جاء التصوير البياني والجمال اللفظي والأداء التعبيري في تضافر تام ، ليعكس لنا نوعاً من النفوس البشرية طغت بما لديها من مال . ففاجأها الله بقدره ، مفاجأة تستحقها . لعلها ترجع وتعود إلى الطريق السوى . والقصة تتضمن عناصرها الأساسية التي تثير الفكر والوجدان وترسخ القيمة الدينية الرئيسية ، وهي هدف القصة ومغزاها .

فالشخصية هنا نموذج للطامع البخيل . وللغنى الذي أبطره غناه .. وهي في الشكل الخارجي تبدو متماسكة ، لأنها تتماسك بجاهها ومالها . ولكنها في الحقيقة ، لا تملك مؤهلات هذا التماسك ، فهي فارغة من الداخل . لاقية دينية مترسبة ، ولا خوف من الله ، ولا حساب له .. مما جعل الشخصية في النهاية تنهاوى .. وتذوب ... أمام القدرة الإلهية .. تلعن نفسها وتندب حظها ، وتستشعر الندم في كل ما فعلت .

والحوار : يكشف لنا في لمسات فنية سريعة مراحل التحول في الشخصية من التكتم ، والإصرار ، والتخافت ، والجدل .. مما يعين على فهم الحالات النفسية التي صاحبت الفعل كما صاحبت المشهد الأخير .

كما إن عنصر المفاجأة له من التمكن بحيث يقلب الحدث رأساً على عقب . فأفادنا في التعرف على موقفين : موقف ما قبل المفاجأة . وموقف ما بعد المفاجأة . كما أنها تضمنت الهدف الديني .. وهو أن الله غالب على أمره ... وأن كل شيء بإرادته . وأن المال عارية لا يضيف قوة ، ولا يسند قلباً فارغاً من الإيمان .

(٨) القرآن المعجزة الكبرى ص ١٤٢ .

## الفصل الرابع

### التصوير الفني

## التصوير الفنى

إن الصورة الفنية الجميلة ترتبط ارتباطاً لغوياً وخيالياً بالتعبير الحسى .. وهذا يؤدى إلى تعميق الدلالة وتوضيحها .. ويصبح المعنى غنياً ومؤثراً فى النفس ... وجمال التصوير الفنى ناتج عن تضافر الملكات الذهنية والحسية تضافراً كاملاً . والربط بين الأشياء المتألفة أو المتنافرة ، يثير العواطف الأخلاقية والمعانى الفكرية .. ومن ثم تصبح الصورة التعبيرية بياناً إشارياً لحقائق الأشياء بما يكتنفها من جماليات فى المعنى والأداء .

والتصوير الفنى وسيلة مميزة ضمن وسائل القرآن الكريم ومنهجه التعبيرية المعجز . والاهتمام بالصفة الحسية غالب فى الصور القرآنية .. مما يعطى للصورة بعداً تجسيمياً وثقلاً تخيلياً مثيراً للذهن والوجدان . كما أنه يوضح العلاقة بين المعنى المراد لإيجازه والتصوير المستعان به .

( إن المادى الحسى والفكرى الوهمى أو الخيالى ، يتعانقان تعانقاً ملحاً فى مجال الدلالة الأدبية .. فالدلالة بنية عضوية حية متميزة من حصيلة الأقسام التى يمكن أن تتحلل إليها .. الدلالة الأدبية مجال .. )<sup>(١)</sup>

والتصوير فى القرآن منهج كامل وطريقة متبعة . لا تخطئها العين ، مما يصبح ظاهرة أدبية لها تميزها وتفرداها ومجالها الخاص . إنه يحول الألفاظ والتراكيب إلى صور عامرة بالحياة والحركة .. وإذا ما ألقينا نظرة على مجالات التصوير فإننا ندرك أن الصورة الحسية المؤثرة تتواكب بكثرة فى مناحى مختلفة .. فهى تأتى فى مجال الإدراك العقلى والذهنى المجرد ، كما تأتى لتجسم الحالة الوجدانية . وتصور المشاعر الإنسانية وتشخص الجمادات أناساً يحبون ويعقلون ويحيون .. مما يعطى للصورة الأثر النفسى

---

(١) الصورة الأدبية . د. مصطفى ناصف ص ٥٦ .

كما يعطى للمعنى ، الدلالة المصاحبة للصورة فى إبراز مجسم للمعنى المراد .. ولا يقف التصوير الفنى عند حدوده البلاغية المعروفة من تشبيه أو مجاز أو استعارة ، أو غيرها .. وإنما هو يتعدى ذلك كله إلى كلية الصورة التى يرفدها الجرس اللفظى والتآلف الصوتى ، والتطريب النغمى ، وموسيقى السياق كله .. فضلا عن إثارة مجالات الحس والذهن .. عبر ظلال من متممات الصورة ، كالتلوين بتمائله وتضاده . والحركة فى علوها وانخفاضها ، وصخبها وسكونها . والصوت المنبعث من الحروف اللفظية ، أو من حوار الشخصية ، أو من هدوء النغم أو ارتفاعه .. إنه التصوير الحى المنتزع من عالم الأحياء . ( تصوير تقاس الأبعاد فيه والمسافات ، بالمشاعر والوجدانات . فالمعانى ترسم وهى تتفاعل فى نفوس آدمية حيّة أو فى مشاهد من الطبيعة تخلع عليها الحياة )<sup>(٢)</sup>

ويجب الإشارة إلى أن طريقة الأداء التعبيرى هى المحك الحقيقى فى تصوير المعنى وإخراجه إلى مجال التأثير إخراجاً يعطى فائدة مؤثرة . ومن ثم فإن اختلاف وسائل الأداء وطرائقه يؤدى حتماً إلى اختلاف المردود فى تصوير المعنى .. نفسياً وذهنياً .. فالمعانى ترتبط برباط وثيق مع وسيلة الأداء التعبيرى وطريقته .. فاختلف الأداء يؤدى إلى اختلاف المعنى . ( فلن يبرز المعنى الواحد إلا فى صورة واحدة ، فإن تغيرت الصورة تغير المعنى بمقدارها ) ... إن طريقة التصوير فى القرآن الكريم هى التى جعلت للمعانى والأغراض والموضوعات القرآنية صورتها التى نراها . وهى صورة تختلف تماماً عن .. نقل المعانى فى أداء تجريدى أو صورة ذهنية .. إن المعانى فى هذه الحالة تصل إلى المتلقى فى أداء ذهنى خالٍ من الجمال التعبيرى .. مما يصبح التأثير فيه مرتبطاً بدرجة المتلقى العقلية ..

(٢) التصوير الفنى . سيد قطب ٣٧ .

أما في الطريقة التصويرية فإنها لا تكتفى بجانب واحد تخاطبه كالأولى وإنما هي تسعى حثيثة إلى مخاطبة الذات ككل .. الحس والوجدان معا . مع القبض على الحالة الذهنية التي تعيش هذه الحالة التصويرية الكلية .. ولا شك أن لهذه الطريقة في التصوير شأنا فنيا بالغاً [ فوظيفة الفن هي إشارة الانفعالات الوجدانية ، وإشاعة اللذة الفنية بهذه الإثارة وإجاشة الحياة الكافية بهذه الانفعالات ، وتغذية الخيال بالصور لتحقيق هذا جميعه ... وكل ذلك تكفله طريقة التصوير والتشخيص للفن الجميل ]<sup>(٣)</sup> ولنضرب بعضاً من النماذج القرآنية يتجلى فيها التصوير الفني أداة تعبيرية فائقة الجمال ونافذة التأثير ...

ومن النماذج التي وردت كثيراً .. تصوير المعاني الذهنية تصويراً حسياً يجسمها ويشخصها ويجعلها ماثلة للعيان .  
قال تعالى :

﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدَّت به الرياح في يوم عاصف لا يقدرّون مما كَسَبُوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد ﴾<sup>(٤)</sup>

السياق في الآيات يوضح أن الكفار قد استهزأوا برسل ربهم فأعد الله لهم عذاباً ونكالاً شديدين يوم القيامة .. ثم يأتي المثل الذي ضرب في الآية السابقة لبيان أعمال هؤلاء الكفرة وطبيعتها .. وهباء نتيجتها .. والصورة تبين لنا أن أعمال الكفرة التي عملوها في حياتهم الدنيوية كمكازم أخلاقية من صلة الأرحام وعق للرقاب وفداء للأسرى والمال المتصدق وإغاثة الملهوف .. هذه المكازم الأخلاقية التي يبتغون بها الأجر والثواب ... يشبه الرماد التي تعصف به الرياح فيصير هباءً منثوراً ... وأهمية الصورة هنا أنها

(٣) المصدر نفسه ٢٤٢ .

(٤) إبراهيم ١٨ .

تبين أن ما قام ( على غير أساس من معرفة الله والإيمان به وكونها لوجهه برمد طيرته الريح العاصف ... فلا يرون له أثراً من ثواب كما لا يقدر من الرماد المطير في الريح على شيء )<sup>(٥)</sup> .

إن الصورة الحسية تلور حول الرماد الهش الذى لا يصمد أمام قوى الريح العارمة .. فثمة شيء ذهنى ، أو عقلى ، يتمثل فى هذا العمل المعنوى الذى يرجى منه الخير والثواب .. هذا العمل ممتد فى جنباته ، كالكرم ، وصلة الرحم ، والإغاثة .. وهى صفات معنوية جسدها التصوير التشبيهى تجسيدا قويا .. ولكن التصوير الفنى علا على أطراف التشبيه .. حيث بدت لنا حركة الريح شديدة ومستمرة ، هذا الاستمرار يستفاد من كلمة ( عاصف ) وهم اسم الفاعل الذى يحمل دلالة الاستمرار ، وكذلك لفظ ( اشتدت ) حيث توحى بقوة الحركة الفعالة .. فضلا عما تشير به لفظه ( الريح ) من دلالات مصاحبة .. ويظل عالقا فى الذهن .. تلك الأعمال المتناثرة فى الجو كالهباء ..

والصورة الحسية فى موضوع الصدقة ، صورة فريدة ومؤثرة ، لقد جلاها القرآن فى نسق تعبيرى معجز . وأوضح التصوير الفنى بظلاله وإيجاءاته ، جوانب الصورة بحيث بدت الصدقة - كقيمة أخلاقية - مشهداً محسا يخاطب حواس الإنسان ، وله الطابع التخيلى المجسم ... إن ما ورد حول الزكاة والصدقة جاء مرتبطا بتصوير فنى أخاذ ...

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ، كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَ صُلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مَّا

(٥) الكشف للزمخشري ص ٢٩٨ .

## كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين ﴿٦﴾

لقد نقلت الآية الكريمة معنى الصدقة المصحوبة بالرياء في صورة حسية متخيلة ، والتخيل هنا قائم على التصور العيني .. ومنتزع من البيئة ، وإمكانية تلمسه وتحسسه ممكن واقعا .. والسياق القرآني يتعرض للنظام المالي والاجتماعي في الإسلام ويظهر وجهة النظر الإسلامية في هذا الشأن .. وهو نظام يتمثل في الزكاة المفروضة كما يتمثل في الصدقات العامة .. في مجالات الانفاق المختلفة .. ومن هنا فإن السياق يتحدث عن آداب الصدقة وسلوكيات المتصدق . بحيث تصبح الصدقة عملاً تهذيبياً تلمس معطيها ، وعملاً نافعاً لآخذها وتكافلاً للمجتمع بأسره . ومن أجل إبراز هذه الحقائق جميعها جاء التصوير ناطقاً في مشاهد حية ملموسة يصل تأثيرها إلى الأعماق .. والسياق التاريخي يبرز أن هناك ... من كان ينفق المال كارهاً أو مرثياً ، أو يتبعه بالمن والأذى . ومن ثم خاض القرآن معركة المال من أجل تخليصه مما يشوبه من سوءات وفساد .. وهي معركة متواصلة مادام الإنسان تتنازع قوى الخير والشر . إنها معركة ( مع الضعف والشح والحرص في داخل النفس ، ثم هي معركة مع الشر والباطل والضلال والطغيان في واقع الحياة )<sup>(٦)</sup>

ولقد جاء الخطاب في الآية القرآنية إلى المؤمنين ألا يبطلوا صدقاتهم بالمن والأذى ورسمت لهم الآية مشهداً غاية في الروعة والتأثير .. إن المشهد يصور لنا المنفق بماله خاوى القلب من الإيمان ، يملك قلباً قاسياً ، شديد القسوة ، قلباً صلباً صلابة حجر الصنوان نفسه ... وما العمل الطيب في ظاهره والذي يضع غلالة رقيقة شفافة على القلب القاسي المتبيس ، إلا

(٦) البقرة : ٢٦٤ .

(٧) الضلال ج ١ ص ٤-٣

تراب هش يكسو سطح هذا الحجر الصنوان الصلد الأملس الذى لا يكاد يبقى شيئاً عليه .. ويخدع الرأى أن ما عليه من تراب صالح للزرع والإخصاب .. وإنما هو فى الحقيقة خداع بصرى .. كما أن إنفاق المرائى خداع قلبى ، ووفى التصوير الفنى وفاءً منقطع النظير حيث أبرز هذا المعنى المعنوى الداخلى فى مشهد حتى تراه الحاسة البصرية وتدركه تماماً ..

إن خواء القلب سرعان مايبين ويظهر ، وينكشف هذا المستور الذى حاول المتصدق أن يستره ويخدع به غيره ، ... فهذا هو المطر يتساقط غزيراً على الحجر الأملس .. ويتلاشى التراب ويضيع ، ويبدو فى مجال الرؤية .. هذا الحجر الصلد فى قساوته .. وحجريته ، وجذبه .. كما ينكشف القلب فلا ثمر ولا جزاء ولا مثوبة ..

ولقد عكست الألفاظ الدلالات المصاحبة .. فكلمة « المَن » كشفت نفسية المرائى وخداعه .. فهو انسان معتد بذاته ، مغرور بماله .. حريص على كسب الصنيت وعلو المنزلة .. وكان المال هو وسيلته إلى تحقيق هذا المظهر الخارجى ... إنه فى النهاية يعتد بإحسانه على من أحسن إليه .. على سبيل التطاول .. وجاءت الإضافة إلى الناس ( رثاء الناس ) لتوضيح هذه النفسية المرائية فالصدقة المبدولة ليس الهدف منها الرغبة فى رضى الله وإنما ثناء الناس وذكرهم له دائماً بما ينفخ ذاته ، ويكرّس ذاته المتعالية .. ولعلنا نلاحظ الأصل الاشتقاقى فى كلمة « رثاء » فأصله من الرؤية .. ومن ثم تعكس حرص المرائى على أن يرى الناس ما يفعله .. ثم ننظر إلى دلالة لفظى ( الصفوان - الصلد ) ... فالأولى تعنى الحجر الأملس .. والثانية تعنى الحجارة الملساء التى لا تبقى ترابها على سطحها ، فلا يثبت عليها شيء ... فيشير المعنى اللفظى ، بتصوير القلب فى صلادته ، والعمل فى إحباطه ... إن الصورة الحسية ترفدها الظلال الفنية .. فتمة حركة هادرة تشمل وجهين



من الصورة .. صورة المنفق في حركته المتعالية الغرور وحركة المطر الشديد الذى يتساقط فيأخذ البصر .. كما تأخذ حركة المرائى العين .. ويتضاد مع الحركة سكون قابع يتسم بالجمود والهمود والبلادة .. في جوف المرائى قلب ينبض ، ولكنه في الحقيقة جامد ساكن لخلوه من الإيمان .. فهو معطل لا يتأثر بحركة الفعل .. كما أن حجر الصنوان جامد هامد لا يتأثر بحركة المطر ولا يتشرب قطرة واحدة .. ولا تتأثر مسامه بوابل المطر المنهل ..

هذا السكون وتلك الحركة يصنعان محوراً للصورة الفنية . ثم لننظر إلى المشهد في صورته المحسوسة .. إن الصوت يترامى ويعلو ويطنوف بالمكان .. إنه صوت زاعق صاحب كالطبل لافائدة منه .. وإنما يجذب الانتباه .. والصوت المنبعث من المرائى .. والصوت المنبعث من ارتطام الماء بصلادة الحجر يستدعى استخدام حاسة جديدة .. لاستيعابه .. وهى حاسة الرؤية البصرية .. فالرؤية البصرية هدف للمرائى .. ورؤية الحجر الأملس .. هدف للتشبيه .. رؤية تؤثر في النفس .

ثم انظر إلى تلون المباهاة بالمال .. وإلى هذا اللمعان الذى يعكسه الحجر وقد غسل بالمطر .. لتعرف كم هو خادع هذا المنظر في لونه وشكله الخارجى .. إن التصوير الفنى في هذا المشهد عكس المعنى تماماً وجسمه ، وتضافرت الألفاظ ودلالاتها ، وتآلفها المعنوى والصوق ، وطرفا التشبيه ومحوره ، والحركة والصوت ، والبصر وحاسة ، واللون وخداعه .. تضافر ذلك كله لتوضيح المشهد توضيحاً كاملاً ، ولا يبرز المعنى المراد إبرازاً .. مؤكداً وعميقاً ..

ويمضى السياق القرآنى ليعقد المقارنة في مشهد تصويرى حافل بالإثارة والمتعة مشهد يتميز بالتماء والخصوبة .

قال تعالى : ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم ، كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعملون بصير ﴾ البقرة ٢٦٥

هذا مشهد تصويرى يتناول بالصورة الجانب المقابل للمشهد السابق ، فهنا يتسيد الإيمان المشهد كله .. الإيمان الذى يملأ القلب ، إنه القلب المتحرك النابض ، ظاهراً وباطناً ، خلصت إرادة صاحبه لله سبحانه .. فهو ينفق المال ابتغاء مرضاته وهو واثق ثقة المؤمن المطمئن بأن الخير كامن فيه ، لأنه خالص لله ... لا يشوبه شيء ، ولا يدخله دخل يفسده .. هذا الخير نام كثير التماء .. هذا القلب الندى الرطب ، النابض إيماناً وخيراً ، مترع بجميع المعاني الجميلة .. تربة صالحة للنماء .. تنزرع في دمائه حبيبات الخير فتورق أشجاراً محملة بالثمار .. تنفع صاحبه ، وتنفع غيره .

هذا القلب الايماني .. جنة وارفة الظلال .. هذان محورا الصورة .. ولكن القلب خبيء على الناس .. كيف يبدو الخير فيه ظاهراً مُحَسَّساً .. كيف تبدى النتائج الحيرة .. للانفاق الطيب الذى يدفعه قلب مؤمن .. عميق الإيمان .. كيف ؟

هنا يتجلى المشهد بأروع ما فيه ...

إنها الجنة الخصبة الجميلة المثيرة .. قائمة في جمال يأسر العين ويأخذ اللب على ربوة عالية .. تتيه بجماها وخصوبة تربتها .. يتساقط المطر عليها فتفتح المسام ليتغلغل إلى الأعماق فيعطى دفقا من الحياة إلى الجذور والساق والأغصان والثمار فيبدو كل شيء زاهيا .. بل إن الرذاذ وحده كاف لحياة خصبة مثمرة لقد أحياه الماء [ كما تحيي الصدقة قلب المؤمن فيزكو ويزداد صلته بالله . ويزكو ماله كذلك .. ويضاعف له الله مايشاء ... إنه المشهد الكامل ، المتقابل المناظر ، المنسق الجزئيات ، المعروض بطريقة معجزة التناسق والأداء ، الممثل بمناظره الشاخصة لكل خالجة في القلب ، المصور

للمشاعر والوجدانات بما يقابلها من الحالات والمحسوسات .. الموحى  
للقلب باختيار الطريق في يُسر عجيب .. <sup>(٨)</sup>

ولننظر إلى المقابلات الجزئية في المشهدين ...

في المشهد الأول كان التراب حفنة صغيرة ، وقشرة ظاهرية تخفى وجه  
الصفوان الصلد القاسى .. وفي الثانى الجنة الحاوية لجمال طبيعى وافر فوق  
ربوة عالية تملك رخاوة التربة وخصوبتها ..

والوايل قاسم مشترك فى المشهدين .. لكنه فى الأول كشف الادعاء ،  
وأظهر الحقيقة وفضح المستور ... فإذا هو حجر أملىس لاحياة فيه .. إنه محامى  
ومحق .. الصدقة المتبوعة بالمن والأذى .. وفى الثانى تتلقاه الجنة فاتحة  
مسامها .. مستقبلة رذاذه فى شوق .. فتنمو وتزدهر وتؤتى بخير الثمار ..  
إنه أرى وأخصب .. الصدقة الخالصة لله ...

فى الأول كانت النفس فى الحقيقة كالحة خاوية ، فارغة ، منقسمة على  
نفسها تحيا ظاهراً ، وباطناً .. مختلفين .. وفى الثانى كانت النفس عامرة  
بالإيمان ، مترعة بالخير ، جاء توجهها لله وحده .. فثبتها سبحانه . وزادها  
من خيرة ونعمه .. وهكذا .. يوضح المشهد فى صورة حسية متضافرة فى  
ألفاظها وأجزائها غمطين من انفاق المال .. نمط مدان .. ونمط محبب فيه  
الخير والبركة .. ولننظر إلى الصلة الرمزية بين النفس البشرية الخيرة وبين  
التربة .. إنها ( حقيقة الأصل الواحد ، وحقيقة الطبيعة الواحدة ، وحقيقة  
الحياة النابتة فى النفس وفى التربة على السواء . وحقيقة الحق الذى يصيب  
هذه الحياة فى النفس وفى التربة على السواء ... )

---

(٨) الظلال ج ١ ص ٣٠٩ .

ولنتقل إلى نوع آخر من التصوير .. وهو ...

## • تصوير المشاعر والوجدانات ..

قال تعالى :

﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾<sup>(٩)</sup>

الآية القرآنية تشير إلى محاوله المنافقون واليهود فى المدينة من إثارة العصبية القبلية بين قبيلتى الأوس والخزرج . وإعادتهما إلى ما كانا فيه فى الجاهلية . من حروب وإحن . وتذكرهم الآيات بفضل الله عليهم ونعمه . واليهود - تاريخيا - كانوا يجاورون هاتين القبيلتين وكانوا يوقنون نار العداوة بينها . وحين أسلمت القبيلتان وانضوتا تحت لواء الإسلام . عز ذلك على اليهود فحاولوا إثارة ما كان بينها فى الماضى . ولقد سجلت الآيات هذا الموقف .. تذكيراً بفضل الله وتحذيراً من الانسياق وراء اليهود ...

وأول هذا الفضل ... يتمثل فى نعمة الاسلام . تلك النعمة التى انتشلتهم من الضلال إلى الهدى ، من التفرقة إلى الوحدة ، من العداء إلى المحبة ، من النار إلى الجنة .. من الموت والقتل والدماء ، إلى الحياة وحفظ النفس والروح والسلام ... ولقد صورت الآية هذا المعنى فى أيجاز بليغ .. ﴿اعتصموا بحبل الله جميعا﴾ .. فالقرآن الكريم دستور المسلمين هو الرباط القوى الذى يربط المسلمين فيوحدتهم ، فينجوا به .. فالقرآن هو الحبل ..

(٩) آل عمران ١٠٣ .

والحبل وسيلة للتجمع ، والرباط ، والقوة ، وهى وسيلة مادية ملموسة ، فضلاً عن أنها إحدى مفردات البيئة الصحراوية ... فهى أداة ملموسة ، والنفع فيها واضح والحاجة إليها ماسة .. وأضيفت كلمة الحبل المصورة لهذه المعانى إلى الله سبحانه .. لبيان أن الفضل كله لله .. وأن النعمة جميعها من الله ... فالقرآن / الحبل . ليس حَبلاً عادياً ، وإنما هو وسيلة الله .. لانقاذ البشر من الضلال وربطهم بما يعصمهم من الفساد ...

ومن ثم جاء الأمر فى الآية للتكليف .. بضرورة الاعتصام ... وعدم نسيان الأمر فيه أبداً فهو حبل النجاة الحقيقى .. وتأتى كلمة « جميعاً » لتضيف دلالتين مهمتين تؤكدان المراد . « جميعاً » .. قد يراد بها ... التمسك بدين الله وكتابه جميعاً .. والبعد عن الاختلاف فى الدين كما اختلف اليهود والنصارى وقد يراد بها .. الالتفات إلى جماعة المسلمين فى حالة توحدهم وتجمعهم وتآلفهم وابتعادهم عن التفرقة والاختلاف .. إن الدلالات ممتزجان تماماً ...

إنها الأخوة المنبثقة عن الاسلام ... وليست المنبثقة عن العضوية الجاهلية التى يسعى اليهود إلى إحيائها من جديد .. إن الأمر بالاعتصام فى هذا الموقف يستدعى التذكير بالماضى .. حيث يقف الماضى أمام الحاضر وجهاً لوجه . لقد كانت الأوس والخزرج - ككل العرب قبل الاسلام - فى حياة سادرة ، توصلهم إلى العذاب والوقوع فى النار .. فالعداوة كانت المصفة السائدة ، والاشتجار الدائم كان طبيعة الحياة ثم تحولت الحياة وتبدلت من النقيض إلى النقيض .. فحدث التأليف بين القلوب ، وتحققت الأخوة وأضحى التلاحم بين المسلمين قائماً ..

وجاءت الألفاظ المتضادة لتوضح لنا هذه الصورة فى جانبها المختلفين ، ولتقف مع الماضى والحاضر فى دلالة متصاحبة . الماضى /

أعداء ، أما الحاضر / إخوان .. وإن الصورة واضحة تماماً .. والنعمة الإلهية متجسدة تجسداً لا يحتاج إلى دليل .. فالناضى القريب لا ينسى والحاضر معاش لا ينكر .

وتوضح الآية حالة السقوط الرهيب الذى أوشك الناس أن يقعوا فيه قبل الهداية .. ( وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ) . إننا هنا أمام مشهد حى ، يصور حسياً هذا المعنى الدلالى الضال .. إنه مشهد حى تتحرك معه القلوب ... هاهم على وشك السقوط ( وبينما حركة السقوط فى حفرة النار متوقعة ، إذا بالقلوب ترى يد الله ، وهى تدرك وتنقذ . وحبل الله وهو يمتد ويعصم . وصورة النجاة والخلاص بعد الحظر والترقب . وهو مشهد حى متحرك تتبعه القلوب واجفة خائفة وتكاد العيون تملأه من وراء الأجيال )<sup>(١٠)</sup>

إن الآية تصور حركة الأقدام التى كادت تزل ، ثم حركة مقلقة خائفة .. ترعش القلب خوفاً ، وثمة حفرة عميقة تلتظى فيها النيران عاتية لاطية تلتفح ، وتلسع وتحرق ... إن اللون وظلال الحرارة ، وظلمة الحفرة ، يتضافر جميعاً ليرز هول الصورة وقتامتها .. وتستدعى الصورة الرؤية وحاسة البصر لترى هذا الهول الذى يمكن أن يقعوا فيه ...

إن القلوب واجفة ، والحواس متقدة خوفاً ورعباً والأقدام قلقة .. ولا منقذ للناس إلا الله ، واعتصامهم بكتابه ودينه .. ولننظر إلى جمال التعبير ( إذ يرسم هذه الصورة ، ثم يجعل هذه الحفرة من النار ، ويجعلهم على شفا منها ، فيطوى الحياة الدنيا كلها - وهى الفاصل بينهم وبين النار - ويجعلهم - وهم بعد أحياء - واقفين هذه الوقفة على شفا حفرة من النار ،

---

(١٠) الظلال ج ١ ص ٤٤٣ .

حينما كانوا من الكفار<sup>(١١)</sup> ولعل مناسبة الآية .. توضح هذا المجال التصويرى وتساعد عليه .. يروى أن يهودياً مرّ على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج في مجلس لهم يتحدثون ، فغاضه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم بعد الذى كان بينهم فى الجاهلية من العداوة ، فسعى إلى من يذكرهم بيوم (بُعَاث) .. وكان يوماً اقتتل فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس .. فتنازع القوم وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا .. السلاح السلاح ، فبلغ النبى ﷺ فخرج إليهم فقال .. (أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام ..) فعرف القوم انها كانت نزعة من الشيطان .. فألقوا السلاح .. ثم انصرفوا مع رسول الله مطيعين<sup>(١٢)</sup>

إن المناسبة صورة من كيد اليهود للإسلام والجماعة المسلمين .. ومن ثم جاء تذكير المسلمين بنعم الله قويا واضى وحاسما - كما جاء الأمر بالاعتصام بدين الله وكتابه الوسيلة الوحيدة للوحدة والابتعاد عن التفرق وتقويت الفرصة على الأعداء وما يضمروه من سوء للإسلام وأهله ..

ومن نماذج التصوير .. فى القرآن ... رسم المشاهد فى صورة حية متحركة .. تنطق بالحياة .. مما يمكن أن نسميه - إن صح التعبير - الرسم عن طريق الكلمات ..

وفى هذا الجانب تعدد الصور الفنية تعدداً يكاد يكون سمة عامة فيما يتصل بالمشاهد الحية التى تتناول موقفاً من المواقف ... تتنوع فيه الشخصيات ، والأمكنة ، والحركة .. ويحول المكان الشخص إلى حياة كاملة تتنفس وتحيا وتنفعل .. شأن الإنسان .. ويتضح ذلك فى مشاهد الحروب والغزوات ، وفى مشاهد مواجهة الرسل لأقوالهم ، وفى مشاهد يوم القيامة

(١١) التصوير الفنى ص ٤٧ .

(١٢) صفوة التفاسير ج ١ ص ٢١٧ .

وأهوالها .... وفى مواقف الرسل الخاصة .. كموقف الطوفان ، وموقف  
السحرة ، وموقف تحطيم الأصنام ، وموقف ميلاد المسيح ، وموقف بعض  
الغزوات الاسلامية .. وغيرها .. بحيث يتحول الموقف بأبعاده البشرية  
والمكانية إلى لوحة فنية ناطقة .. تنطق بمعالم الفن الحسى ، بحيث يستطيع  
الفنان أن ينقلها صورة فنية تزخر بجمال لانهائى ..

إنها تقبض على الأنفاس ، وتتغلغل إلى القلوب وتجسد فى أداء  
تعبيرى معجز كل الانفعالات البشرية فى حالة تحولها وترقبها وخوفها .

قال تعالى فى سورة الأحزاب :

﴿ يا أيها الذين آمنوا ، اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جاءكم جنود  
فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعلمون بصيراً . إذ  
جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب  
الحناجرَ وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً  
شديداً . وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرضٌ ما وعدنا الله  
ورسوله إلا غروراً . وإذ قالت طائفةٌ منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم  
فارجعوا ، ويستأذن فريقٌ منهم النبىَّ يقولون إن بيوتنا عورة وماهى بعورة  
إن يريدون إلا فراراً . ولو دُخِلَتْ عليهم من أقطارها ثم سُئِلُوا الفتنَةَ لَأُتُوها  
وما تلبثوا بها إلا يسيراً . ولقد كانوا عاهدوا الله من قبلَ لا يُؤَلُّونَ الأَدبارَ  
وكان عهدُ الله مَسْئُولاً . ﴾ (١٣)

الآيات الكريمة من سورة الأحزاب. وهى مدنية تناولت بعض جوانب  
التشريع الاسلامى لتنظيم الحياة وفق الشريعة .. كما تناولت بالتصوير الدقيق  
غزوة الأحزاب حيث تألبت قوى الشر والبغى .. للنيل من المؤمنين والكيد



من الاسلام وكشفت عن القوى الخفية التى تعمل على إحداث الفساد من الداخل . تلك القوى هى المنافقون .. وكشفت الآيات طرقهم ووسائلهم فى الكيد والتخذيل والتشبيط .. ومن ثم جاء التذكير بالنعمة التى أنعمها الله على القوى هى المنافقون .. وكشفت الآيات طرقهم ووسائلهم فى الكيد والتخذيل والتشبيط .. ومن ثم جاء التذكير بالنعمة التى أنعمها الله على المسلمين حين ردّ كيد الأعداء وهزم الأحزاب ..

قال أبو السعود : والمراد بالجنود الأحزاب ، وهم قريش وغطفان ويهود قريظة وبنى النضير ، وكانوا زهاء اثنى عشر ألفا . فلما سمع رسول الله ﷺ بإقبالهم ضرب الخندق على المدينة بإشارة ( سلمان الفارسي ) . ثم خرج فى ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب معسكره والخندق بينه وبين المشركين ، واشتد الخوف وظن المؤمنون كل ظنّ ، ونجم النفاق فى المنافقين حتى قال ( معتب بن قشير ) يعدنا محمدٌ كنوز كسرى وقيصر ولا نقدر أن نذهب إلى الغائط<sup>(١٤)</sup>

إن الآيات تصور هذا الحدث تصويراً كاملاً .. وتكشف معادن الرجال ، كما تصف موقفاً من مواقف الابتلاء . ولعل الموقف التالى يبين لنا مدى البلاء الذى وقع فيه المسلمون ، وشدة التجربة ، وعمق الامتحان الذى تنصهر به الإرادة . فحين اشتد البلاء على المسلمين .. أراد رسول الله ﷺ أن يخفف الأمر عليهم ، فأعطى قائدَي غطفان ثلث ثمار المدينة ، على أن يرجعا بمن معهما .. ووافق القائدان .. ولكن ... حين استشار الرسول سعد بن معاذ سيد الأوس ، وسعد بن عباد سيد الخزرج ، فيما أقدم عليه .. استفسر الرجلان عن الدافع وراء ذلك .. فلربما كان مما يحبه الرسول ،

(١٤) صفوة التفاسير ج ٢ ص ٥١٤ وانظر أيضاً الكشف ج ٣ ص ٢٢٩ .

أو مما أمره الله به .. وقال لهما الرسول ( بل شيء أصنعه لكم . والله ما أصنع ذلك إلا لأننى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة . وكألبؤكم من كل جانب ، فأرت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما .. ) .. وهنا تبدى طبيعة الرجولة الحقة ، وتظهر معادن الرجال الأصلاء ، وتنكشف القلوب عن إيمان عميق لا يداخله شك أو يخالطه نفاق . فيقول سعد بن معاذ : يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرئ أو يئعنا . أفحين أكرمنا الله بالاسلام ، وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا .. والله لانعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ..

وتبدأ الآيات الكريمة بتذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم .. في هذا الموقف العصيب ... ولقد لخصت الآية .. بداية الحدث ونهايته ..  
ففى البداية .. نرى جنود الأعداء وقد احتشدوا لمواجهة المسلمين فى عناد جامع ... فالقبائل قد تألّبت واستعدت وحاصرت المسلمين حصاراً طويلاً .. حتى كادت النفوس تضيق بالحصار . هذا الحصار الطويل الذى كان امتحاناً لكشف طبائع النفوس .. فى هذا الجو القاسى جاء فرج الله .. حيث أرسل على الكافرين الريح .... كما أرسل الجنود أما الريح فكانت ريح الصبا « قال ﷺ نصرت بالصبا ، وأهلك عاد بالدبور »<sup>(١٥)</sup> أما الجنود فهم الملائكة .. وقد قذفوا الرعب فى القلوب .. حتى ماجت الخيل بعضها فى بعض ..

ولعلنا نلاحظ هذا الجانب التصويرى الذى يحمله لفظ جنود .. فنحن هنا أمام قوتين ، قوة الكفر ، وقوة الإيمان ، وكل من القوتين تستند إلى جنود تدافع عن فعلها ومذهبها .. ولكن جنود الأولى جاءت بفعل البشر ..

(١٥) الكشف ج ٣ ص ٢٢٩ .

من أجل البشر .. وكان الخطاب موجهاً إلى المؤمنين لبيان عجزهم عن مواجهة جنود المشركين .. أما جنود الثانية فقد جاءت منة من الله ونعمة .. ومن ثم كان الضمير الدال على التنظيم ، وإسناد المنة لله سبحانه . ولأنها منة فلقد جاءت مستورة عن المشاهد .. ولكنها واضحة بأثر الفعل .. وما حدث في صفوف المشركين .. من هلع وفزع ...

ولقد جاءت المفردة نكرة ولكن التذكير حُصِّص بوصفها .. فأحدث هذا التخصيص توضيحاً وتعميقاً للمعنى . فالآية الأولى في هذا الحادث . لخصت الموقف كله .. جاءت جنود المشركين لحربكم فأخافتكم وأنزلت الرعب في قلوبكم ، ونزلت ملائكة الرحمن .. فقلبت الموقف ورددت الرعب إلى أصحابه .. تلك بداية الغزة ونهايتها .. ولكن ماذا عن الوسط ؟ .. وسط القصة .. وحدثها الكبير ؟

هنا تعيد الآيات مرة أخرى في تفصيل واضح ماجرى أثناء هذا الموقف العصيب .. فترسم صورة الهول الذي روع المدينة . والكرب الذي شملها .. فلقد أطبق المشركون على المدينة من كل اتجاه من أسفل الوادي ومن أعلاه .. وحوصر المسلمون .. وتحيل انساناً واقعا في دائرة حصار كهذه ... أعلاه خوف . وأسفله رعب ... كلما اتجه هنا أو هناك ، وجد العدو يترصد به ...

وهنا تتجلى الصورة القرآنية في توضيح هذا الفزع الشديد الذي أصاب الناس حينئذ .. وتتقدم حواس الإنسان ومشاعره لتسيّد الصورة ، وتقوم بنقل الانفعال والخلجات والحركات كأننا أمام مشهد مصور .. فهذه الأبصار قد زاعت ( ومالت عن سنها ، ومستوى نظرها حيرةً وشخصاً )<sup>(١٦)</sup> ولم تلتفت إلا إلى عدوها لشدة الروع . وها هي القلوب

(١٦) المصدر نفسه ص ٢٣٠

تضطرب خوفاً ورعباً ، حتى لنكاد نرى حركة الاضطراب ظاهرة من شدة النبض الخائف .. ونرى الصدور ترتفع كأنما تقفز القلوب ، أو تتصاعد إلى أعلى حتى تُسد منافذ التنفس ، فيشرف القوم على الاختناق .. وهذا التصوير نقل طبيعة الخوف نقلاً مشخصاً .. فالخوف غريزة ، وهو شعور تلقائي .. إنه مردود انفعالي .. وهو حالة معنوية .. ولكن الآية جسّدتها ، حتى بدا لنا الخوف شيئاً مادياً ملموساً ومشهوداً .. ونكاد نراه أمامنا بجرمه .. ونلمسه بحواسنا .

واستبغ هذا الإحساس الانفعالي العنيف بروز الظن بروزاً واضحاً .. إنه شيء طبيعي يتولد عن حالة الخوف ، وعن موقف الحصار الطويل ... ( وتظنون بالله الظنونا ) .. الآية أجملت الظن . وهو حالة معنوية مصاحبة لحالة الرعب . إن الآية تجمل الظن فترسم ( حالة الاضطراب في المشاعر والخواج ، وذهابها كل مذهب ، واختلاف التصورات في شئ القلوب )<sup>(١٧)</sup> الظلال - ح ٢٨٣٧ فظن المسلمون أنه الله يبتليهم ويفتتهم فخافوا الزلزل وضعف الاحتمال وظن المنافقون أن المسلمين يُستأصلون ..

لقد وقع الجميع في زلزال شديد .. ولعل لفظة الزلزال وتكرارها المؤكّد ، توضح الموقف .. فالزلزال لفظ مادي يصور ما يحدث للأرض من تشققات وانهيارات . وما يصحبه من دمار وقتل للأنس وخراب شديد .. ولكن الزلزال هنا لا يقل تأثيره النفسي عن تأثيره المادي .. فالخوف زلزل النفوس ورجّ القلوب وأزاغ الأبصار وحولّ المواقف وبدا للعين الخائفة أن الأرض تحتهم ترتجّ بهم وتضطرب وأنهم على وشك الهلاك ...

لقد نقلت المفردة القرآنية المعنى الشعوري في إطار مُجسّم تمام التجسيم .. وتمضى الآيات لتكشف مسالك بعض الذين دخلهم النفاق ..

(١٧) الظلال - ح ٢٨٣٧ .

لقد كان أشد ما يكرّب المسلمين أثناء الحصار ما حدث بين نقض بنى قريظة عهدهم .. ومحاربتهم للمسلمين من الخلف .. فكان المسلمون في موقف لا يُحسدون عليه .. المشركون من جهة ، واليهود من جهة .. المنافقون في صفوف المسلمين من جهة أخرى . ولقد وجدها المنافقون فرصة .. كيف لا .. ولقد دخل المرض القلوب . وانظر إلى كلمة المرض .. لتعرف المعنى المقابل له .. إن المرض يصيب الإنسان أو الكائن الحي وهو خلل عضوى ، وقد يأتى عن طريق تغلغل جرثومى يضعف مقاومة الجسم له .. ولقد نقل القرآن هذا المعنى ليصف به قلوب هؤلاء القوم .. لقد تغلغلت جرثومة الكيد إلى الاسلام .. فتلونت القلوب بها .. وضعف الإيمان وانكشف المستور الذى حرصوا عليه .. إنهم يعانون من انقسام نفسى .. بين الظاهر والباطن وسرعان ما طغى الباطن ... وانتهزها المنافقون فرصة ..

وإذا كان المرض بهذا المعنى فإن الدواء الحقيقى هو الايمان والخلوص لله سبحانه ، والأمل فى رضاه ونعمته .. إنّه الصحة / هى الايمان ، والمرض / هو الخلط والفساد والضعف .. إنّه نموذج بشرى .. موجود فى كل زمان ومكان .. وقصدت الآية إلى كشفه وفضح أساليبه ، وتربية المسلمين تربية نابعة من التجربة لمعرفة الصحيح من الباطل ..

إن العلة واضحة ... كأنما تسرى فى الجسد .. وقلوب المنافقين منشورة أمامنا فى صورة العليل .. وهى صورة مجسمة واضحة تستدعى الحواس والانفعال ... ومن هنا كشف المسلك ... عن هذا الباطن المستتر حين طلبوا من بعض المؤمنين أن يرجعوا إلى المنازل فى المدينة ويتركوا محمداً .. وأصحابه .. وكعادة الجبان الذليل المخادع .. فقد تعللوا بعة البيوت المكشوفة التى لا يحميها أحد والتى تقع فريسة فى يد من يريد لها بسوء .. وهم فى الحقيقة لا يغيثون إلا فراراً من الموقف وصعوبته .. لقد فضحتهم الآيات وبينت كذبهم .. وكشفت طبعهم النفاق الدائم .. إنهم

على استعداد فى أى موقف أن يكفروا وأن يقاتلوا المسلمين .. فهم لا يحافظون على الإيمان ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع . وهذا ذم فى غاية الذم .

يقول الزمخشري : والمعنى أنهم يتعللون بإعوار بيوتهم ويتمحلّوا ليفروا عن نصره رسول الله ﷺ والمؤمنين وعن مصافة الأحزاب الذين ملؤوهم هولاً ورُعْباً وهؤلاء الأحزاب كما هم لو كبَسُوا عليهم أرضهم وديارهم وعرض عليهم الكفر وقيل لهم كونوا على المسلمين لسارعوا إليه وماتعللوا بشيء وماذاك إلا لمقتهم الاسلام وشدة بغضهم لأهله وحبّهم الكفر وتهالكهم على حزبه (١٨)

لقد رسمت الآيات مشهداً كاملاً تضافرت فى رسمه الألفاظ ، والدلالات المصاحبة ، والصور البيانية ، وتجسيم المعنوى وتشخيصه .. وتشكيل المكان وثقله .. بحيث أصبحت الآيات لوحة متكاملة فى التعبير الفنى . من حركة مادية ، وحركة انفعالية ، إلى ظلال الخوف المترسب والظاهر ، إلى التلون فى المشاعر ، إلى اللون حيث ظلمه الباطن المنافق ، وخداع الضياء الظاهرى .. مما يجعل التضاد ومحوراً تعبيرياً يساعد على رسم الصورة وتجسيمها ..

ورسم الصورة هنا ، يصور فى حركة حية حادثة حدثت - وهى الغزوة - فى حالة الفعل والحصار حادثة وقعت ، ولكنها بعد أن وقعت يَظَل لها دوامها واستمرارها . وتأثيرها .. لأنها تعاملت مع الإنسان ... فى نمطه وتنوع مشاعره .. والإنسان محور كوفى ثابت ومتغير ، ثابت بالتواصل ومتغير فى علاقاته بالمكان وبالآخرين .. وبالمواقف .

---

(١٨) الكشف جـ ٣ ص ٢٣١ .

ومن ثم يصبح لحركة الوجدان المائرة في الداخل والظاهرة على ملامح الوجه ، ومسلك الانسان .. ثباتٌ ودوامٌ واستمراراً .. فضلاً عن الغوص إل داخل الذات .. والاعتقاد بأن النية هي أساس الفعل ، والابتعاد عن خداع الظهر .. فكم من ظاهر استتر وراءه باطن فاسداً .. يقول سيد قطب رحمه الله في تعليقه على هذا المشهد المصور .. ( لاتفلت في الموقف حركة ولا سمة ، إلا وهى مسجلة ظاهرة ، كأنها شاخصة حاضرة .. تلك حادثة وقعت .. ولكن صورتها ترسم الهزيمة مطلقة من كل ملابسة ، مايزيد عليها أو ينقص إلا جزئيات في الواقع . أما الصورة النفسية المخالدة تتكرر في كل زمان ، حيثما التقى جَمعان ، وتعرض أحدهما للخذلان . )<sup>(١٩)</sup>

ولنأخذ نموذجاً آخر يؤكد عمق التصوير كأداة فنية مميزة في القرآن الكريم وهو مشهد صَوّر حركة طبيعة مغموسة في مشاعر انسانية مضطربة . هذا المشهد يكشفه .. الطوفان .. في قصة نوح ..

قال تعالى :

﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار الثور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ، ومن آمن ، وما آمن معه إلا قليل . وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم . وهي تجرى بهم في موج كالجلال . ونادى نوح ابنه وكان في معزل ، يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال ساوى إلى جبل يعصمني من الماء . قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم . وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقيل يا أرض ابلعي ماءك . وياسماء أقلعي وغيض الماء وقضى الأمر ، واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين . ﴾<sup>(٢٠)</sup>

(١٩) التصوير الفني ص ٥١

(٢٠) هود ٤٠ - ٤٤

هذا مشهد قصصى فى المقام الأول بلغ فى الأداء التصويرى حدًا رائعاً من الأعجاز ، فثمة موقف قصصى . يجرى فى ساحة تتفجر بالحدث .. وشملت مفردات الحدث ، الطبيعة والإنسان ، ووشى الموقف القصصى بمشاعر الأبوة الملهوفة ، والبنوة المعاندة .. ويشمل المشهد كله الأمر الإلهى ، بالفعل وبالكف عن الفعل فى جلال وإكمال يلقيان به .

فها هى عيون الأرض تتفجر ماء وتفيض . والسماء تفتح أبوابها وينهل المطر غزيراً ، وطفى الماء ، وعلا حتى غطى كل الجبال المرتفعة وجاء الأمر الإلهى إلى نوح .. أن يحمل فى السفينة من كلّ زوجين اثنين وسارت السفينة تصارع الموج المتلاطم محروسة فى مجراها ومسرّاهها برعاية الله . والأمواج تصنع الدوامات ليقيم الكافرون فيها ، وليس لهم منجاة من الموت مهما صاروا الموج وهربوا منه .

وهذا الهول الذى يحيق بالناس ، ينبت هولاً جديداً حين يبصر نوح ابنه فيدعوه أن يركب معه ، فعواطف الأب التى تحركت فى قلبه جعلته يتلهف على ابنه ، ويناديه لعل نداءه يصل إلى مكان الإيمان من قلبه فيؤمن الابن أو يذعن .. إنه يناديه فى لهفة : يابنى هلّم إلى السفينة ولا تكن من القوم الذى غضب الله عليهم .. ولكن الكلمات لا تصل إلى قرارة وجدان الابن العاق . فيتأدى ، ويصرخ متحدّياً :

- إننى سأوى إلى جبل مرتفع يعصمنى من الماء ..  
ولم يستمع إلى نصيحة الأب الذى أشجّاه الهم فيقرر فى حسم  
- يابنى لا عصم اليوم من أمر الله .  
وتعلو الأمواج ، وتبتلع الابن ، ويطوى الماء كل شىء ..

إننا هنا أمام مشهد يمتلئ بالحركة والقوة والعنف ، وبلغ التصوير مداه فى رصد ذلك كله .. فالموج المترام كالجبال فى الثقل والضغط والجرم



والارتفاع .. وحركة الموج تتراكم وتتصلب حتى تبدوا للرأى أنها جبل حقيقى .  
والتصوير الحسى يخاطب العين وهى وسيلة إدراكية مؤثرة تلتقط أبعاد  
الهل المرئى فى امتداده وصخبه وعنفوانه ... ولنتصور السفينة وسط هذا  
الهل الطبيعى ، والقلب معقود على الإيمان بالله ، والأمل فيه ، والعيون  
لا تستعصى على رؤية المشهد بهوله وجبروته وشدته . ويتوازى مع الهل المادى  
هل نفسى ..

ولقد أدى التصوير الحسى هذه الحركة النفسية أداء بالغاً فى الإثارة  
الوجدانية . فثمة نداء من نوح عليه السلام ، نداء عالٍ كأعلى ما يكون  
الصوت ، صارخ كأحد ما يكون الصراخ ، حتى يصل إلى الابن واضحاً  
وسط هذا الصخب والتلاطم .. ثم يأتى الحسم بين النداء ، والإباء . فجاءت  
كلمة ( حال ) دلالة على الحجز والمنع . وهى دلالة إشارية إلى عنف الموج  
واضطرابه . فالموج عاصف لا يأبى بعاطفة ، أو بوجدان ، إنها فى صورة حية  
مشخصة ، فقد جاء الأمر أن يغرق الموج الكافرين . والابن منهم ، فلابحال  
للنداء ، ولا ضرورة للاستجابة . واستوى كل شئ أمام الماء ، الأرض  
والإنسان . فلا الأرض تملك من نفسها شيئاً ولا الإنسان يقوى على  
المواجهة .

لقد تكافأ العجز فى الطبيعة والإنسان . وهو تأكيد وترسيخ للقدرة  
الإلهية والعظمة الربانية .

ثم نأتى إلى بقية المشهد ..  
فبعد أن وصلت الحركة إلى الذروة آن لها أن تجد قرارها وتستكين .  
لقد هدأت العاصفة وبدأ السكون يخيم ، ويتمشى الهدوء ، وتستقر الأرض  
من جديد . فلقد جاء الأمر إلى الأرض أن تفيض ففاضت وبلعت ماءها ،  
واستعادت جأشها وامثلت لأمر الله . كما جاء الأمر إلى السماء ، فامتثلت

وحجبت ماءها وأقلعت . وقضى الله الأمر ونفذ القضاء . وجاء الأمر حاسماً نقلته أداة النداء ( يا ) المصحوبة بالفعل الطلبى ، المطلوب تحقيقه ( ابلعى - أقلعى ) .. فى تصوير مشخص .. والتصوير التشخيصى .. يجعل السماوات والأرض منقادة للمشئئة غير ممتنعة فى التلقى والأداء « كأنهما عقلاء مميزون قد عرفوا عظمتة وجلاله وقدرته ، وتبينوا تحت طاعته عليهم وانقيادهم له »<sup>(٢١)</sup>

ثم ينقل المشهد فى أداء تصويرى سريع إلى النهاية .. ونقل المشهد سريعاً ، تطلب بلاغياً ونسقياً أن يكون البناء للمجهول ( غيـض ) تأكيداً على الفعل نفسه ووقوع حدثه .. إن وقوع الحدث غير أمر طلبى يستدعى تشخيص المادى بخصائص العاقل الواعى ، فتكتمل الاستجابة ويتحقق المغزى . وكذلك الفعل ( قيل ) فعل مبنى للمجهول يحمل اللعنة على الظالمين ، لعنة ليست آتية من فرد بعينه فى زمن بعينه وفى مكان بعينه ، وإنما حملت الدلالة العامة الشاملة للإنسان والزمان والمكان . كما أن ( مجيء أحبارہ على الفعل المبنى للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء ، وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر ، وتكوين مكوّن قاهر ، وأن فاعلها فاعل « واحد »<sup>(٢٢)</sup>

والموقف المصور فصلّ فى قصة نوح .

والقصة تبين موقف الرسل من أقوامهم المعارضين المعاندين . والقصة القرآنية تبرز الغرض الدينى من خلال السياق الفنى ، فى نسق تعبيرى متوازن يجمع بين الغرض الدينى والغرض الفنى .. فى إطار تصويرى بالغ الروعة ..

(٢١) الكشف جـ ٢ ص ٢١٧ .

(٢٢) الكشف جـ ٢ ص ٢١٨ .

فالمواقف القصصية والمشاهد المصورة ، لم تنقل بطريقة إخبارية تزودنا بالمعلومات وكفى ، ولكنها تنقل بطريقة تصويرية يتجلى فيها الفن وجمال العرض وروعة الأداء التعبيري .. حيث تنقل هذه المشاهد بطريقة يقدم فيها الحدث تقديماً كاملاً ، بحيث يعطينا المعلومة الإخبارية ، والدلالة المصاحبة ، ومن ثم يمنحنا التصوير المتكامل للموقف تكاملاً في الشعور والتأثر والجمال .

## الفصل الخامس

### التشخيص وجماليّاته التعبيرية

## التشخيص وجمالياته التعبيرية

من أبرز مجالات التصوير في القرآن الكريم ما يمكن أن نطلق عليه

### مصطلح .. التشخيص ..

فإذا كانت الأداة المصورة من أعظم فعاليات التعبير في القرآن بحيث تتجلى لنا - كما لاحظنا - المعاني الذهنية والمشاعر الانسانية .. من خوف وفرح وهزيمة - والمواقف البشرية ، والمشاهد المكانية .. وغيرها في إطار حسي مشاهد يموج بالحركة والفعل ، فإن جانباً آخر من جوانب الأداء التعبيري يعتمد على التخيل والتشخيص بحيث تبدو الحياة مبثوثة في الصور التعبيرية . وتبدى لنا الأشياء في جانبها الانساني .. كما لو كانت ذاتا تعي وتنفعل وتشعر ...

إن هذه الأداة التصويرية تحيل المواد والظواهر والانفعالات إلى كائن بشري تموج بالعواطف والانفعالات والخلجات النفسية . بحيث تبدو كما لو كانت ( تشارك بها الآدميين ، وتأخذ منهم وتعطي ، وتبدى لهم في شتى الملابس ، وتجعلهم يحسون الحياة في كل شيء تقع عليه العين ، أو يتلبس به الحس ، فيأنسونه بهذا الوجود أو يرهّبونه ، في توفز وحساسية وإرهاف )<sup>(١)</sup>

ولقد توسل الأداء القرآني إلى هذا الجانب عبر استخدام المجال الاستعاري وهو مجال مفضل في الأسلوب القرآني . ( فالألفاظ المستعارة ألفاظ موحية لأنها أصدق أداة تجعل القارئ يحس بالمعنى أكمل إحساس

(١) التصوير الفني ص ٧٣ .

وأوفاه ، وتصور المنظر للعين وتنقل الصورة للأذن وتجعل الأمر المعنوى ملموساً مُحَسَّنًا<sup>(٢)</sup>

والجمال الاستعارى المرتبط بالتشخيص يؤدي إلى الامتزاج الكامل في الصورة بحيث أخذ التعبير أقطار الصورة في جوانبها المختلفة .. ويصبح للخيال دوره الهام في إشباع الصورة وتمثلها .. والخيال أحد أدوات التشخيص الهامة .. وهو في المجال الأدبي عمل جوهري وأحد عناصر التجربة الفنية ، يلجأ إليها المبدع ليعبر به عن مكون الذات .. حين تعجز الألفاظ الوصفية عن نقل التجربة .. فالخيال أو التصوير مرده إلى قصور الألفاظ ومعانيها الحقيقية عن التعبير عما يشاهده الأديب في حياته النفسية الداخلية من مشاعر .. فيتحول من مجاز إلى مجاز ومن استعارة إلى استعارة . وكأننا نقفز معه في سماءه من أفق إلى أفق ، فنشعر بغير قليل من البهجة ، أو قل كأننا معه في دار خياله تعرض علينا صوراً متتابعة تنفصل بها عن حياتنا الواقعية ، فنسكن إليها ، ونحس بغير قليل من المتعة ، إذ نشعر كأننا تخلصنا من أعباء الحياة ، وانزاحت عنا إلى حين<sup>(٣)</sup>

إن الأديب المبدع يلجأ إلى استخدام التشخيص ليحيل الأشياء إلى ذات تنفعل وتحرك ، ويصبح الكون في عين الشاعر . ذاتا ناطقة منفصلة ، ليخلص في النهاية إلى استيلاء قدر كبير من الجمال الفني والتأثير النفسي .

والأداء القرآني وهو يستخدم هذا الجانب التعبيري يدرك حاجة المتلقى النفسية إلى تصور الأشياء والمشاعر ... شعوصاً متحركة .. بحيث يبدو المجال مؤثراً ومتغلغلاً في الذات . وبحيث تتبدى لنا الأشياء . التي نراها ساكنة ، حية مطلقة واعية ، وكأنما تشارك الإنسان حياته ، وتواصله ،

(٢) التعبير الفني في القرآن : بكرى شيخ أمين ص ١٩٥ .

(٣) في النقد الأدبي د. شوقي ضيف ١٥٠ .

ووجدانه ... وهى أداة تحمل الاقتناع ذهنى والنفسى على جناح من الخيال الجميل المؤثر .. إن الأداء التصويرى الشخص ( يهب للجماد العقل والحياة زيادة فى تصوير المعنى وتمثيله للنفس )<sup>(٤)</sup> كما أنه يسلم المتلقى ( إلى عالم من الخيال يتناسب مع حدة شعوره وانفعاله )<sup>(٥)</sup>

إن التداخل بين الحواس يؤدى إلى شيوع علاقات جديدة ، لها فاعلية فى التصوير والأداء والتأثير ، ناتج عن الصورة التركيبية الجديدة للعلاقات . وتصبح قوة التركيب هذه من أكبر القوى المتمايزة والمتداخلة فى تكوين المجال الاستعارى الشخص . ( فالتجسم والتشخيص يتعمقان بناء اللغة ، وضمائرها ، وأفعالها وصفاتها )<sup>(٦)</sup> وهو يعقد تلك المقارنة والملاءمة بين الجماد والذات البشرية فى إطار جديد من العلاقات الإنسانية المتجاورة بين المادة والعقل المنفعل . بحيث يتسرب التشخيص فى كياننا عميقا موغلا يربطنا بالطبيعة بوئاق أثري جذاب .. ومن ثم يصبح للتشخيص تأثيره العميق فى النفس البشرية . فهو ذو قدرة على التكثيف والاقتصاد والإيجاز .

ولننظر إلى التشخيص فى القرآن الكريم ..

قال تعالى :

﴿ ولما سكث عن موسى الغضب . أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾<sup>(٧)</sup>

ولابد من سبب قوى يجعل الغضب فى هذه الشدة وهذا العنف بحيث يملك موسى عليه السلام ويسيطر عليه ..

(٤) التعبير الفنى ص ١٩٧ .

(٥) القرآن والصورة البيانية د. عبدالقادر حسين ص ١٧٥ .

(٦) الصورة الأدبية د. مصطفى ناصف ص ١٣٥ .

(٧) الأعراف ١٥٤ .

ترى ما السبب ؟ ..  
السبب تفسره لنا هذه الآية الكريمة .

قال تعالى :

﴿ إن الذين اتخذوا العجل سينا لهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين ﴾<sup>(٨)</sup>

إن الآية الكريمة تتحدث عن بنى اسرائيل وعن النعم التي أنعم الله بها عليهم ثم قابلوها بالجحود والعصيان .. هذا الجحود الذى تبدى في ردتهم عن الإيمان ومعاودتهم لعبادة العجل .. فالذين عبدوا العجل واتخذوه إلهاً سينا لهم غضب شديد من الله ... وينا لهم في الدنيا خزي وذلة .. لقد اندفع القوم في هياج شديد واندفاع متعجل إلى عبادة العجل الذهبى .. واستضعفوا « هارون » حين حاول ردّهم .. ونصحهم .. مما أثار في موسى انفعالاً قوياً ، أُلجأه إلى رمى الألواح وهى كلمات ربه .. لقد أفقده الغضب زمام نفسه ..

قال تعالى : ﴿ وألقى الألواح ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه ﴾  
الأعراف : ١٥٠

لقد أخذ الغضب مأخذه من موسى وهو النبى ، وهو القوى الجسم أيضاً .. ولننظر إلى حركة الرمى الغاضبة المنفعلة ، وإلى قبضه لرأس أخيه هارون في انفعال حاد لم يطقه الرجل الطيب .. وإلى لسان العقل الهادئ والبصيرة النافذة حين يرر هارون لأخيه ماحدث .. قال تعالى على لسان هارون :

﴿ ابن أم ، إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني ﴾  
الأعراف :

١٥٠

(٨) الأعراف ١٥٢ .



إن الألفاظ تحمل دلالات الإثارة المتعطّفة ، وتحمل النداء الرقيق الذى يثير وشائج القربى .. ومن ثم نأتى إلى الآية المرادة هنا .. ﴿ ولما سكّت عن موسى الغضب ﴾ الأعراف : ١٥٤

لنعرف مدى ملاءمتها للسياق .. فسبب الغضب واضح ، وهو سبب فى حقيقته يؤدى إلى الاجتياح الانفعالى .. ويقلب الحليم إلى قوة ضاربة . كما أن الآية وماسبقها تبين لنا شخصية موسى عليه السلام ، هذا الانفعال ، جعله يقتل المصرى ، وجعله يطلب من الله أن يؤازره بهارون الهادى البصير ..

فالمرود النفسى فى هذا الموقف مردود هائل وقوى يفلت زمام النفس ، ويجعل للغضب الجانح سلطانا عليها .. ومن ثم جاء التصوير فى الآية مجسدا لهذه الحالة الانفعالية فالتعبير القرآنى يشخص الغضب .. ويجعله كائنا حيّا ضارباً بكل شيء ويحتاج كل شيء ... ويرمى بكل شيء .. تتطايّر منه أسنة الغضب فتطول الأشياء . والأشخاص والمكان .. ولقد سكّت الغضب .. بعد أن كان شخصا جانحاً يدفع موسى ويحثه على الانفعال وكأنما موسى مسير له ..

يقول الزمخشري فى دلالة التصوير بكلمة « سكّت » واشعاعاتها الفنية التى لا يمكن أن تثيرها كلمة مرادفة وردت فى بعض القراءات وهى مفردة « سكن » .. ( الغضب كأنه يغريه على مافعل ويقول له قل لقومك كذا ، وألق الألواح وجرّ برأس أخيك إليك .. فترك النطق بذلك ، وقطع الإغراء ، ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يَسْتَفْصِحْها كل ذى طبع سليم وذوق صحيح إلا لذلك . ولأنه من قبيل شُعَب البلاغة ) وأما قراءة ( ولما سكن عن موسى الغضب ) فالنفس لاتجد عندها ( شيئاً من الهزة وطرفاً من

تلك الروعة (٩)

وهكذا تجمل الصورة تعبيراً فائقاً عن هذا التسلط الانفعالي المشخص في إطار بشرى هائج .... حتى إذا سكنت عنه وتركه لشأنه ، وخفف من تسلطه عاد موسى إلى نفسه .. والتقط الألواح وبدأ يواجه القوم . ليعيدهم إلى الطريق الحق ، ويزيل ضلالهم ، وشقاءهم الروحي .

إن المجال الاستعارى هنا .. أعطى للغضب وظيفة جديدة لم تكن معروفة له .. وأنشأ علاقات بين الانفعال والإنسان .. ووضح التشخيص عبر الخيال فجعل الإحساس خصبا والفكر متجدداً ، والصورة حية ..

ولنستمر في رصد الانفعال المشخص ...

قال تعالى :

﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت ، فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسَّيْفِ حَدَاد ... ﴾ (١٠)

إن النص القرآني الكريم يصور حالة المنافقين في موقف محدد وهو غزوة الأحزاب .. والمنافقون ( في نفوسهم كزازة على المسلمين كزازة بالجهد وكزازة بالمال . وكزازة في العواطف والمشاعر على السواء ) (١١) .. هؤلاء هم المعوقون الذين يقعدون عن الجهاد ويشنون الهزيمة ويدعون إليها ..

ولقد رسمت الآية صورة نفسية رائعة ، تنضح بالسخرية ، وحددت نموذجاً لتخط من البشر تكشفه حالتان ... حالة الخوف والفزع والهروب أثناء مواقف البأس والشدة . فيها هو الخوف يحط عليهم ويشملهم ويحتويهم ويشل حركتهم ، إنه ذو قبضة قوية تعصر القلوب وتلوى الأعناق ، مما

(٩) الكشف ج ٢ ٩٥ - ٩٦ .

(١٠) الأحزاب : ١٩ .

(١١) الظلال ج ٥ ٢٨٤ .

تجعل العيون شاخصة نحوه لاتقلت حركة له ، ولا تفوّت ديبياً فيه . إنهم مأخوذون بجيروه وقوته .. هذا الخوف الذى يمرح فى المكان كالرجل القوى ذى القدرة الآسرة والنافذة التى تغوص إلى الداخل .. هاهو الخوف شخص مجسم يجيء ويروح ويفرض فى مجيئه الهلع والفرع إنها صورة شاخصة ، متحركة ، ومتلونة بألوان العواطف وحركات الملايح ...

وتصور نفسك وأن ترى عيون هؤلاء الجبناء تدور حيثما دب الخوف المشخص وملاً المكان بجمره .. إنهم فى لحظة هاربة ، تشبه لحظة المغشى عليه من الموت .. وهو يعالج ... سكرات الموت وشدته .. وكأنما العيون تكاد تخرج من أحداقها .

قال القرطبي : ( وصفهم بالجن ، وكذا سبيل الجبان ، ينظر يمينا وشمالاً محدداً بصره ، وربما غشى عليه من الخوف .. )<sup>(١٢)</sup>

فإذا تولى الخوف وذهب وانجلت المعركة لبسوا رداءً جديداً ، وتحولوا إلى صورة مغايرة ، فملأهم الغرور الكاذب والاعتداد بالنفس البعيد عن الحقيقة وبدأوا يقدمون طلبات ، ويطلبون مطالب . كما لو كانوا قد فعلوا شيئاً مفيداً أو ساهموا فى نصير ما .. وهم فى الحقيقة عبء وعالة .

ما أن تنجلي المعركة ، حتى يعلوا الصوت سليطاً مؤذياً . يبالغون فى الذم ، يطالبون بالغنيمة ، ويذكرون القوم بما فعلوا . وهم لم يفعلوا شيئاً إلا التعويق والإغراء بالانسحاب والهروب وكأنهم يقولون فى صوت لاهياء فيه اعطونا مانستحق من مال الغنيمة . فقد شهدنا معكم المعركة ، ونحن معكم لنا الحق مثلما لكم .. وقد كانوا من قبل والخوف يمرح مشخصاً مثلاً للجن والخوف والذلة . إن الصورة ككل تثير السخرية من هؤلاء الجبناء

---

(١٢) صفوة التفاسير ج ١ ص ٥١٦ .

الذى تنطق أوصالهم وجوارحهم في لحظة الخوف بالجبن والذلة حتى إذا ذهب الخوف خرجوا من جحورهم وارتفعت أصواتهم المرتعشة وانتفخت أوداجهم بالعظمة . وادعوا في غير حياء قتالاً وشجاعة واستبسلاً ، يريدون مقابلاً لها في المال والغنيمة ..

وهذا النموذج البشرى الذى وقع في التصوير المشخص بين « جاء الخوف » و « ذهب الخوف » .. نموذج متواجد على مر الزمان والمكان .. فهو الشجاع الفصيح في لحظة السلام وهو الجبان الرعديد في لحظة الشدة .

ما العلة إذن في هؤلاء القوم . النموذج المزدوج .. ؟  
العلة كامنة في قوله تعالى :

﴿ أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم ﴾ الأحزاب : ١٩

فالإيمان لم يخالط قلوبهم فلم يهتدوا بنوره ... ولاشك أن الصورة قد تركت في النفوس الاحتقار لهذا النموذج والسخرية منه والابتعاد عنه ، وهوانه على الله وعلى الناس .

إذن فالجبيء والذهاب بالنسبة للخوف ليس على الحقيقة وإنما هو تشخيص مصور مجسم ، يلقي بالتأثير في قرار النفوس . ولاشك أن هذه الصورة المشخصة للخوف رفدتها عوامل لفظية وبيانية أخرى اندرجت كلها تحت الصورة الكلية .. فمفردة ذهب / جاء . تعكس حالة التضاد في موقف الجبناء ومن ثم تكشفهم وتفضح أمرهم .. ذلك أن موقفهم الحقيقي كامن ودائر بين الجبيء والذهاب . ثم تأتى الصورة البيانية .. لتوضيح حالتهم أثناء الخوف .. حيث بدا التشبيه عاكساً لفعل الخوف في العيون مثلما يحدث لمن يعانى سكرات الموت ثم تأتى الصورة البيانية الأخرى لترصد تلك الصورة عن طريق التضاد أيضاً .. فهم في لحظة النصر يتيهون ويسلقون القوم

بألستهم فبدا اللسان صارماً كالسيف .. وتلك طبيعة المنافقين دائماً....

وقريب من هذا التناول قوله تعالى :

﴿ فلما ذهب عن ابراهيم الروح وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط .  
إن ابراهيم لحليم أواه منيب ﴾ (١٣)

لقد شخصت الآية الروح كما شخصت البشرى .. إن الآية تتحدث مع غيرها عن ضيوف ابراهيم من الملائكة وقد بشروه بشارة سارة بولادة غلام له .. تلك البشارة التي جعلت زوجته تندesh قائلة في عجب كيف ألد وأنا المسنة ، والزوج شيخ هرم ... كيف يتأتى لنا هذا ؟ .. وهو الموقف الذى غزا الخوف فيه ابراهيم حين رأى ضيوفه ، لامتد أيديهم إلى الطعام ... فأوجس منهم خيفة . قالت قتادة : كان العرب إذا نزل بهم ضيف فلم يطعم من طعامهم ظنوا أنه لم يجيء بخير وأنه جاء يحدث نفسه بشر .. ومن ثم تأتى الآية عبر السياق لنتهى هذا الموقف المتوجس .. فهذا هو الروح قد ذهب عن ابراهيم واطمأن قلبه لضيوفه حين علم أنهم ملائكة ، وجاءته البشارة بالولد ، ومن ثم بدأ السياق يأخذ مسرى آخر .. وهو المجادلة في شأن لوط وأهله ..

لقد عكست الصورة موقفين نفسيين مرَّ بهما ابراهيم عليه السلام .. فالروح يأتي هائجا شاملاً يحتاجه . ثم سرعان ما يهدأ ويسكن ، إنه مثل الكائن الحى القوى الذى تتغير حالة من هياج إلى سكون .. ولقد أتمحت صورة الروح المحسم المشخص لتحل محله صورة مجسمة شاخصة .. هى صورة البشرى وقد جاءت على هيئة فتاة وادعة ساكنة هادئة ، مبتسمة توحى بالخير والبشارة .. ومن ثمَّ كان السكون والهدوء وطمأنينة القلب ..

إن الحركة حية ، تنبض بما ينبض به الإنسان من مشاعر متغيرة ،

لَوْنَتِ العواطف البشرية بألوان مادية لها صفة التشبُّه .

وننتقل إلى لون آخر من التشخيص ..

قال تعالى : ﴿ وَاللَّيْلَ إِذَا عَمَّسَ . وَالصُّبْحَ إِذَا تَنَفَّسَ . ﴾<sup>(١٤)</sup>

وقال تعالى : ﴿ وَاللَّيْلَ إِذَا يَسَّرَ . ﴾ الفجر ٤

سورة التكويد مكية ، وهى تتصف بما تتصف به السور المكية ، من الآيات القصار ، وتوالى الفواصل وجمال الإيقاع الصوتى ، وتناغم الألفاظ مع المعانى وبناء الصور الحسية الجزئية التى تعبر عن المشاهد والمواقف تعبيراً سريعاً أخاذاً .. فضلاً عن أنها تتناول مشهداً من مشاهد يوم القيامة وهو جانب هام من جوانب العقيدة الإسلامية .

والسورة ترسم مشهداً غاية فى القوة ، ألوانه وظلاله وأجرامه مفردات كونية .. حيث يحدث الزلزال الكونى فيتبدل كل شئ .. كما أن السورة تؤكد على حقيقة الوحى ورسالة محمد .. وتنفى عنه صفات الكفار وادعاءهم ..

إن الإيقاع فى السورة يهز النفس هزاً ويخلعها مما تعودت عليه ، حيث يتسبب السورة التغير الهائل فى الكون والإنسان ... ولقد صاحب ذلك جمال تعبيرى أخاذ ناتج عن الألفاظ المختارة بإعجاز لتلون حركة المتتابعات فى المشاهد .. ولاشك أن جميع الصور حسية بحتة .. توالى فى منظومة حسية تثرى الوجدان وتؤثر فى النفوس ، وتعمل عملها فى النهاية فى إيصال العظة والعبرة ، والتخويف فى جهة ، وفى توصيل الإيناس والطمأنينة والتدعيم للرسول والمؤمنين من جهة أخرى ..

---

(١٤) التكويد ١٧ - ١٨ .

ووسط هذا الحشد الهائل من المتغيرات في الكون ، ومع هذا التيار اللفظي المنساب في جمال أيقاعى باهر .. وردت الآية الكريمة ( والصبح إذا تنفس ) التكوير : ١٨ لتنضم إلى المعزوفة الإيقاعية الفريدة في نظمها وإعجازها .. والآية وردت في إطار تعبيرى يتسم بالقسم ، وأن المقسم به هو مفردات كونية . وأن الجواب قائم على طبيعة الوحي وصفة الرسول ﷺ .

إن صورة الصباح تسبقها تلك الصورة الفريدة لتصوير الليل في حركته .. فهذا هو الليل قد أظلم وسحب عباءته الداكنة على الكون فشملمها .. ولكن اللفظ ( عسعس ) يحيل اليل في ظلمته إلى شيء آخر .. وكأنما الليل وهو يمد ظلمته رجل له كيانة البشرى يعس في الظلام .. فيمد يده حيناً ، ويمد رجله حيناً آخر حتى تنتهى حركته إلى نقطة النهاية التى منها يبدأ الصبح حركته ..

فثمة ديبب متواصل يستمر في دورة أبدية .. ويتتابع المشهد .. فيتبدل من ظلمة جاثمة تدب الهوين .. إلى صباح ممتلئ بالنور .. وانظر إلى الصورة الجميلة التى تبين مدى وطأة الظلمة على النور .. إن حركة التنفس صفة بشرية تعنى الإشعار بالحياة واستمرارها .. ولكن أنفاس الصباح ليست كأنفاس الإنسان الذى شَخَّص به ، إنها أنفاس من النور والحياة .. تجعل الدنيا كتلة من النور الحى .. كما أن الأنفاس دليل على حياة الإنسان ..

يقول سيد قطب : ( وأكاد أجزم أن اللغة العربية بكل مآثوراتها التعبيرية لاتحتوى نظيراً لهذا التعبير عن الصبح . ورؤية الفجر تكاد تشعر القلب المفتوح بأنه بالفعل يتنفس .. إنه ثروة شعورية وتعبيرية .. ثورة جميلة بدیعة رشيقة تضاف إلى رصید البشرية من المشاعر وهى تستقبل هذه

الظواهر الكونية بالحس الشاعر) (١٥) .

فالصبح كائن حى مثل ( الإنسان والنبات الذى تترد أنفاسه ، وتدب فيه الحياة ، وليس طبيعة صامتة جامدة لاروح فيها ولا حس ، بل الحياة تتجاوب فيه فتكسوه ثوبا جديداً غير الذى عهدناه فيه ) (١٦)

وقريب من هذا المعنى تأتى الآية الأخرى فى سورة الفجر وهى تصور الليل فى سريانه .. ( والليل إذا يسر ) الليل : ٤  
لقد صورت الآية الليل فى حركة اظلامه وامتداده ومسيره الهوين إلى نهايته .. بصفات الإنسان الذى يسير فى تودة .. فتحس بسريانه الناعم فى هذا الكون ..

وسورة الفجر مكية تتسم بنفس ماتتسم به السور المكية .. كما لاحظنا فى سورة التكوير . ولكنها تتضمن إشارات سريعة لمصارع الغابرين من الأقوام المتجيرة . كقوم عاد ، وفرعون . فالسورة بها مشاهد متعددة ، ذات إيقاعات متنوعة يحكمها نظام الفواصل الذى يعطى قدراً واضحاً من الإيقاع والتناسق التعبيرى ..

وفى هذا الجو التعبيرى يبدو الليل مخلوقاً ككل المخلوقات الحية ، يسرى الليل .. كالحارس الذى يدب فى المكان يقظاً ، اطمئناناً لما هو موكل به .. واختيار كلمة « يَسْر » صفة للمسافر الذى يمضى فى سفره ورحلته ليلاً .. ومن ثم جاء التعبير موحياً ، فكأنما الليل يختار فى رحلته السرى .. وهو تعبير مجازى ولكنه أيضاً حقيقة .. لارتباط الصفة بالموصوف ارتباطاً حتمياً .. إن الليل يسرى فنحس سريانه واضحاً فى هذا

(١٥) الظلال ج ٦ ص ٣٨٤٢ .

(١٦) القرآن والصورة البيانية ص ٢٠٦ .



الكون العريض .. كما لو كان كائنا حيا يدب ويسرى في فضاء متناغم مع حركة الكون ومفرداته .

وتتحول الصورة - عبر التشخيص - إلى محاورة .. ويصبح الحوار شكلا تعبيريا يؤكد التشخيص ، ويضفى صفات الإنسان على الجماد ، فينطق ويتحاور ، ويشعر ويحس ، ويطيع ، ويتلقى الأمر ، وينفذ .. حركة انسانية ، تحدها المشاعر ، والادراكات العقلية ..

قال تعالى :

﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين ﴾<sup>(١٧)</sup>

الآية وردت في سورة فصلت ، حيث وضحت فيها الدلائل على قدرة الله ووحدانيته .. والآية تتحدث عن مشهد الخلق الأول للحياة . خلق السموات والأرض في شكل دقيق محكم يلفت الأنظار إلى التفكير والتدبر . يقول الزمخشري ( ومعنى أمر السماء والأرض بالإتيان ، وامتاثلهما ، أنه أراد تكوينهما فلم يمتنع عليه ووُجدتا كما أرادهما . وكانت في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه فعل الأمر المطاع . وهو من المجاز ، ويجوز أن يكون تخيلا . ويبنى الأمر فيه على أن الله كلم السماء والأرض وقال لهما أئتيا شئتما ذلك أو أيتما فقالت أئتينا على الطوع لا على الكره . والغرض تصوير أثر قدرته في المقدورات )<sup>(١٨)</sup>

إن الإستواء في الآية يعنى القصد . والقصد من جانب الله هو توجه

(١٧) فصلت ١١ .

(١٨) الكشف ج٣ ص ٣٨٥ .

الإرادة . وتصبح ( ثم ) المعروف دلالتها على التراخي والترتيب الزمني .. دالة على الارتقاء المعنوي كما يرى سيد قطب رحمه الله إذ إن السماء في الحس أرفع وأرقى .. والآية تشير إلى انقياد الكون كله لله سبحانه .. وأنه متصل بخالقه اتصال الاستسلام والطاعة ، فلا يمكن أن يخرج عنه .. إن السماء والأرض تأتي كل منهما طائعة ، وتسير هينة لينّة ، متجهة إلى ربها متصلة بحركة الناموس الكوني كله .

وإذا كان الجماد قد نطق وحاوّر وأطاع ، فكيف يكون موقف المعاندين وكفرهم بالله والسماء والأرض تقولان لربهما ( أتيننا طائعين ) فصلت : ١١ . وهذا التمل الصغير العاجز من البشر الذي يدب على الأرض يكفر بالله في تبجح واستهتار (١٩)

والآية تبين لنا هذا الحوار الذي دار بين خالق الكون وبين السماء والأرض .. ويأتي الأمر الإلهي طالبا من السماء والأرض أن يأتيا على أية حالة .. الطاعة أو الاضطرار .. وتأتي الإجابة واضحة جلية ... لقد اختارتا جانب الطاعة .. ( إن السماء والأرض من الجمادات التي لا تسمع ولا تعي ، ولا تعقل ولا تنطق ولا تجيب إن سئلت ، ولكن عنصر التخيل والتشخيص جعل منها إنساناً ، له عقل وفكر وعاطفة ، فهما يفهمان ما يلقي عليهما ، ويحسان بما يدور حولهما ويرهفان السمع ويأنسان بكلام الله ، فيسرعان إلى تلبية الأمر والانقياد للقدرة الالهية . ) (٢٠) إن الكلمة حين تستخدم مجازيا تكتسب قوة لم يكن لنا بها عهد قريب وتكشف عن علاقات جديدة بين الأشياء .

إن العقل الذهني المجرد قد دخله في إطاره المجرد كثير من الصور

(١٩) الظلال ج ٥ ص ٣١١٥ .

(٢٠) الصورة البيانية ٢٠٧ .

الحسية فلاشيء في العقل لم يدخل بادیء الأمر من سبيل الحواس بوجه ما .  
( وليست حالاتنا الروحية في متناول التفكير ، بمعزل عن ذاك الحس  
الآسر ، لذلك نعبر عن المجرد في حدود المجسم ، ونصور غير المألوف  
بوساطة المألوف ، ونعبر عن غير الحسى بحدود حسية .. )<sup>(٢١)</sup> .

ومن ثم فإن كثيراً من الأفكار والاعتقادات لاتنفصل عن المجال  
الاستعارى الذى هو وسيلة للعقل وللخيال وللتشخيص وللتجسيم ، في ارتياد  
آفاق جديدة للخيال والمعنى ، بحيث تنتظم التجارب وتنوع وتتحرك وتتخذ  
أثواباً حية متحركة ، وتبدي لنا الأشياء مجهولها وحاضرها أمامنا في عالم  
يتسم بالحركة والتجسيم ..

ومن ثم فإن عناصر التصوير المشخص ، أكثر تأثيراً في النفس ،  
وأعظم اتساقاً في تجسيد المعنى ، وأدخل أثراً في النفوس البشرية .. ونحن  
نتابع حركة التشخيص في الماديات وقفنا عند الأرض / المادة . والسماء /  
المادة . كيف تحولتا في التعبير القرآنى إلى كائن حي ينطق ويعبر .. ويلتزم  
بالطاعة والخشوع ...

ولنأخذ نماذج أخرى تدور حول هذا المعنى المشخص ..  
قال تعالى في سورة الأحزاب :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا  
وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا . ﴾<sup>(٢٢)</sup>

لقد وردت الآية الكريمة في سياق الأمر الإلهى الداعى إلى مراقبة الله  
في القول والفعل ، ومداومة الطاعة . والعمل بتكاليفه .. ومن يعمل ذلك

---

(٢١) الصورة الأدبية ص ١٢٩ .

(٢٢) الأحزاب آية ٧٢ .

متوجها إلى الله فإن الفوز حليفه .. ثم تأتى الآية لبيان ثقل التكليف الشرعية التى أنيط بها الإنسان وأمر بتلقيها والعمل بهديها .. ولكن التعبير القرآنى أبرز هذه التكاليف فى صورة حسية مجسمة فيها الضخامة وفيها الثقل ، وفيها الحمل الذى ينوء بحمله الجمادات الكونية كالأرض وكاليل وكالسموات .

إن الخلائق المادية الكونية الهائلة من شمس ونجوم وكواكب ، تطيع ناموس الخالق طاعة مباشرة ، وهى تقوم بوظيفتها الكونية غير مختارة .. إنها تعرف ربها وتخضع لمشيئته .. وهنا .. برغم هذا الامتداد الهائل للمادة ، وتجسيمها ، فإنها فى حالة عرض الله سبحانه وتعالى الأمانة الإلهية وهى التكليف .. خافت وارتعت برغم هذا الثقل الهائل الذى تتميز به السموات والأرض والجبال . دخل الحس البشرى ، وتغلغل فى مسامها المادية وجدان الإنسان ومشاعره .. فبدت فى لحظة مختزلة انساناً يبور بحالات وجدانية ... وأمام هذا العبء الثقيل عبء تحمل الأمانة تضرعت السموات والأرض إلى الله سبحانه أن يبعد عنها هذا التكليف .. لقد أشفقن جميعاً من تبعة تحمل الأمانة وغزاها جميعاً هذا الشعور بالخوف والإشفاق فردت الأمانة إلى بارئها خوفا ورعباً من نتيجة تحملها ..

فى لحظة خاطفة وعت الماديات فى وجدان خائف نتيجة التبعة .. فرفضن تأديبا وخوفاً من النتيجة .. إنها مخاطرة لا يقدم عليها هذا الكون الهائل .. الصورة مشخصة حية ، متحركة تتحول المادة فجأة إلى إنسان عاقل يتدبر الأمر والنتيجة ، ويشعر بمشاعر وجدانية مختلطة ، فيأبى ، ويشفق ويتضرع ويطلب فى موقف تكليفى بالغ الاعجاز .

يقول أبو السعود : والمعنى أن تلك الأمانة فى عظم الشأن بحيث كلفت هاتيك الأجرام العظام التى هى مثل فى القوة والشدة .. وكانت ذا

شعور وإدراك على مراعاتها لأئين قبولها وأشفقن منها .. (٢٣) صفوة التفاسير ج٢/ ٥٤٠

وإن خلق الادراك والشعور الذى أرادہ أبو السعود ليس إلا تصويراً مشخصاً أعطى للموقف بهاءه وحسبته ، وإنسانيته الفياضة .. فضلاً عن تعظيم شأن الأمانة ومدى ثقلها ..

ويقول الزمخشري أن الآية الكريمة قد فُحِّمَتْ وعظمت من شأن الأمانة فهذه الأجرام العظام قد انقادت لأمر الله عز وجل ( وأطاعت له الطاعة التى تصح منها وتليق بها حيث لم تمتنع على مشيئته وإرادته إيجاباً وتسوية على هيئات مختلفة وأشكال متنوعة ، كما قال ، قالتا أتينا طائعين ... والطاعة لازمة الوجود ، كما أن الأمانة لازمة الأداء ، وعرضها على الجمادات وإبائها وإشفاقها مجاز ) (٢٤)

وثمة ملمح تصويرى آخر جاء عن طريق المجال الاستعارى التمثيلى .. حيث صورت الآية الأمانة فى ضخامتها وعظمتها وتفخيم شأنها بأنها من الثقل بحيث لو عرضت على السموات والأرض والجبال ، وهى من القوة والشدة والثبات ، بمنزلة لايدانها منزلة ، لأربت عن حملها وأشفقت .. وهو تصوير رائع .. حيث صور الأمانة / الطاعة / التكليف . وهى أمور معنوية .. بالحمل الثقيل الذى يعجز الكائن عن حمله .. ومع ذلك فقد حمله الإنسان ، لما فى الإنسان من عقل ووجدان حقيقى غير متخيل ولما فيه من قوة الإرادة والتأمل ، ولما جُبِّلَ عليه من الحرية والاختيار ومن ثم المسؤولية .. وهى مسؤولية أنيط بها الإنسان .. لاستخلافه على الأرض ..

(٢٣) صفوة التفاسير ج٢ ٥٤٠ .

(٢٤) الكشف ج٣ ٢٤٩ .

وفي هذا المجال التشخيصي جاء النداء إلى الأرض أن تفيض ، وإلى السماء أن تكف .. وذلك في مشهد من أمتع المشاهد التصويرية وهو مشهد الطوفان .

قال تعالى في سورة هود :

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢٥)

إن سياق الآية جاء بعد أن هدأت العاصفة .. العاصفة التي كان فيها الموج متدافعا ، متراكما كالجبال .. وجاء النداء الإلهي إلى الأرض أن تبتلع الماء وتخزنه في باطنها كما جاء النداء إلى السماء أن تكف عن المطول .. والنداء لا يكون إلا للعاقل ، حتى يستطيع أن يتنبه العقل فيه لتلقى الأمر والأمر لا يوجه إلى جماد ، بل يكون للعاقل الواعي .. ومن ثم فإن النداء دخل بالجماد إلى مجال الإنسان .. العاقل المدرك .. إنه مدخل بشري لتلقى الأمر الإلهي ..

وجاء الأمر إلزاماً إلى الأرض المشخصة في صورة انسان يبلغه النداء أن تتشقق فتبتلع الماء .. والبلع صفة بشرية .. ضرورة للحياة .. والاستمرار .. فكأن بلع الأرض للحياة ، إنما هو اختزان ضروري لسبب مهم جداً لاستمرار الحياة وهو المياه .. كما جاء النداء إلزاماً إلى السماء أن تكف عما تفعل من إسقاط المطر .. وكأن السماء إنسان يفعل .. ويطلب منه الكف .. إن النداء والأمر جعلاً من الجماد وكأننا بشرياً حياً عاقلاً يتلقى الأمر وينفذه ..

ومن ثم عهداً عاصفة الكون الكبرى فيفيض الماء ويتم أمر الله بإغراق من غرق ونجاة من نجا وتستقر السفينة على الجبل إن الأمر هنا كما يرى الزمخشري مما يختص به أهل التمييز ، وهو دلالة على الاقتدار العظيم ..

(٢٥) هود آية ٤٤ .

فالسما والارض منقادة لتكوينه فيما يشاء غير ممنعة عليه كأنها عقلاء  
مميزون ..

وقوله تعالى عن الأرض أيضا في مجال التشخيص الحى ..  
قال تعالى :

﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت  
وربت .. إن الذى أحيها لمخى الموتى إنه على كل شىء قدير ﴾ (٢٦)

إن الأرض هنا من الآيات الدالة على وحدانية الله .. إنها يابسة جرداء  
تشبه الرجل الذليل الخاضع ... ثم سرعان ماتتحرك وتعلو بالنبات حين ينزل  
الماء فتخرج من الألوان أجملها وأخصبها .. والذى أحيها الأرض بعد موتها  
لقادر على إحياء الموتى .

ولنتأمل الأداء التعبيرى الجميل الذى توحى به كلمة خاشعة .. بما  
فيها من حياة وحركة وتصوير فى تناسق فنى يربط به بين حركة الأرض وفعل  
الإحياء ونقف لحظة أمام دقة التعبير القرآنى فى كل موضع . فخشوع  
الأرض هنا هو سكونها قبل نزول الماء ثم اهتزازها بعد نزوله . وكأنما هى  
حركة شكر وصلاة على أسباب الحياة . والسياق الذى وردت فيه الآية  
سياق خشوع وعبادة وتسبيح ، ( فجىء بالأرض شخصياً من شخوص  
المشهد تشارك فيه بالشعور المناسب وبالحركة المناسبة . ) (٢٧) كما أن لفظ  
( اهتزت وربت ) تخيلان حركة الأرض بعد خشوعها وهذه الحركة هى  
المقصودة لأن كل ما فى المشهد يتحرك حركة عبادة ، فلم يكن من  
المناسب أن تبقى الأرض وحدها خاشعة ساكنة ، فاهتزت لتشارك العابدين

(٢٦) فصلت ٣٩ .

(٢٧) الظلال جه ٣١٢٥ .

المتحركين في المشهد حركتهم .. ( وهذا لون من الدقة في تناسق الحركة المتخيلة يسمو على كل تقدير ) (٢٨) ..

إن صورة الأرض التي اهتزت وربت بعد جفاف ويس ، صورة تتكرر كثيراً في القرآن الكريم ، وتأتى في سياقها الخاص .. لتثبت قضية يدور حولها التوحيد .. وهى قضية البعث . وقضية البعث - ليست أمراً سهلاً على العقل أن يتصوره في ذلك الزمان البعيد - الذى طغت فيه الوثنية ، وانطمست فيه الفطرة .. وكان التصوير الحسى المقارن .. الذى يتخذ صفة التشخيص والتخييل أحد أدوات القرآن التعبيرية لتوصيل المعنى المراد توصيلاً مؤثراً .. فى النفس ، وقابضاً على مدارك العقل . ذلك أن استخدام مفردات الحياة المحيطة بالإنسان فى بناء صور تعبيرية مؤثرة أدعى إلى الاقتناع وأدخل إلى التأثير فى النفس :

قال تعالى فى سورة « ق » :

﴿ فَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مَبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبِ الْحَصِيدِ ﴾ ٩

وقال تعالى : ﴿ رَزَقْنَا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ

الخروج ﴾ ق ١١

الآية وردت فى سورة ق . وهى سورة مكية تعالج أصول العقيدة الاسلامية . ولكن موضوعها يكاد ينحصر فى اثبات قضية البعث والنشور تلك القضية التى أنكرها الكافرون .

قال تعالى : ﴿ إِذَا مَتَّأ وَكُنَّا تُرَابًا ، ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ ق ٣

ولقد عالج القرآن القضية فى برهان ناصح وحجة دامغة .. وفى أداء تعبيرى معجز ، أداء يهز النفس والقلب معا - ويملك على الحس أقطاره .. وفى خلال السياق تتعدد آيات الله وقدرته ، كما تتحدد مصائر الأمم السابقة

(٢٨) المصدر نفسه ٣١٢٦ .



المنكرة للتوحيد . الماء والأرض .. لفظان يتكرران ، ويتصاحبان كلما جاء الحديث عن تذكير الله لعباده بنعمه ، أو جاء ليوضح قضية الإحياء والموت . فالماء الذى ينزل من السماء مبارك .. فيه النفع والخير . وهو آية تحيى القلوب الميتة ، كما تحيى الأرض الميتة .. إنه مبارك لأنه سبب من الله لإنبات النبات وجعل الأرض مليئة بالجنات وحب الحصيد .. هذا الماء المبارك يحدث الصورة الحسية الشخصية ... فالأرض فى تحولها من جذب إلى خصوبة مترعة بالخير .. الأرض الميتة الجدباء الجافة المتشقة ، اتخذت صورة الانسان فى حالتين .. حالة الموت وحالة البعث .. لقد جرى على الأرض ما يجرى على الانسان .. فالحياة والموت صفتان لازمتان للانسان .. استعارهما الأداء القرآنى إلى الأرض ليرسم فى صورة مشخصة تلك القضية التى ينكرها الكافرون .. وتنتقل الصورة المشخصة إلى صورة تحليلية تقرب الهدف الدينى إلى الذهن .. حيث يصبح إحياء الأرض وموتها فى صورتها الانسانية المشخصة وهى صورة مشاهدة بالعين .. وسيلة إلى الصورة الأخرى .. صورة البعث .. الاحياء بعد الموت .. لقد وضع البعيد بعقد الصورة القرية المشاهدة .. يقول ابن كثير : وهذه الأرض الميتة كانت هامدة فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج .. فهذا مثال للبعث بعد الموت ، فكما أحيا الله الأرض الميتة كذلك يحيى الله الموتى (٢٩)

ولنتنقل نقلة إلى جانب آخر من جوانب التشخيص فى الآخرة .. لنقف على بعض الصور التعبيرية لمفردات مشاهد القيامة فى هولها ورجفتها ..

---

(٢٩) مختصر تفسير ابن كثير ج ٣ ٣٧٢ الصابوني .

قال تعالى : ﴿يَوْمَ نَقُولُ لَجَهَنَّمَ ، هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾ ق ٣٠

إنه يوم رهيب ..

إن الصورة التعبيرية المشخصة لجهنم تلقى بالرعب في القلوب .. إنها كائن حي .. ضخيم مهول لأنها له ، يفغر فمه الواسع الممتد .. فيبدو القاع بلانهاية . تتلمظ الشفاه طالبة المزيد والمزيد ... هذا الكائن الحي العاقل - الذى اتخذته جهنم يوم القيامة - كان طرفا في الحوار .. والحوار يكون في إطار بشرى .. يقول الله سبحانه ... لجهنم .. هل امتلأت . ! وجهنم التى يلقي إليها بالأفواج الكافرة ، فوجا بعد فوج وأمة بعد أمة ، تتلمظ في عجلة ، وفي شراهة ، وترد على ربها في إيجاز سريع يفى بالغرض : رباه هل من مزيد . ! ... وما أبدع التصوير وأروع .. وما أشد الرعب الذى يتغلغل في القلوب والعقل البشرى يتخيل جهنم في هذه الصورة التى لا تكف عن التلحظ والابتلاع .. إنها تهضم / حرقا كل مايرد إليها .. والآية ( على التمثيل ، وإنها تصوير لسعة جهنم وتباعد أقطارها بحيث لو ألقى فيها جميع الكفرة والمجرمين فإنها تتسع لهم<sup>(٣٠)</sup> ) .

ويقول الزمخشري ( وسؤال جهنم وجوابها من باب التخيل الذى يقصد به تصوير المعنى في القلب وتثبيته<sup>(٣١)</sup> ! ) والحوار الذى دار بين الله وبين جهنم ، أنشأ لنا صورة وضحت الموقف تماما ومثلته ، ووضح مدى الهول الناشب في النفس والقلب من صورة جهنم . فالحوار يدور بين الله عز وجل وبين جهنم . فينشئ لنا الحوار صورة بعد صورة فتتمثل الموقف تمثلا واضحا ( فالله يعد جهنم بالامتلاء من الكافرين والعصاة ، وجهنم لا ينفذ وقودها ، ولا يضيق مكانها ، فتطلب المزيد حتى تمتلئ ، ولا تجد مكانا

(٣٠) صفوة التفسير ج٣ ص ٢٤٦ .

(٣١) الكشف ج٤ ص ٢٤ .

للمزيد بعد امتلائها ، حياة وحركة ، أضفاهما الحوار ، وتجاذب الحديث مع مَنْ لا ينطق ولا يتكلم ، فأعطانا هذا الحوار صورة رائعة لتمثل هول الجحيم ، وعنفها ، وشدة سعيها (٣٢)

وثمة آيات أخرى تصور جهنم تصويراً مشخصاً ..

مثل قوله تعالى : ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا ﴾  
الفرقان : ١٢

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُور ، تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ الملك : ٨

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا لَظَى ، نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى ، تَدْعُو مِنْ أَدْبَرٍ وَتَوَلَّى ، وَجَع فَأُوْعَى ﴾ .. المعارج : ١٥ : ١٨

وفي يوم القيامة ، يضطرب كل شيء .. ويستبد الخوف بكل شيء ..  
الجماد والانسان .. وتحول الجمادات إلى كائنات عاقلة ، تخاف ، وترتجف ، وتزلزل .. وتذوب . وتشق وتنفذ وتصلبك ، .. إنه بعث للحياة في الجماد .

قال تعالى :

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ، وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ﴾ (٣٣)

... في هذا اليوم الهائل .. كيف تكون الأرض والجبال ؟ .. إن الأرض تضطرب ، والجبال تتزلزل .. ويتحول كل شيء إلى فئات ورمال سائلة .. هاهي الأرض من شدة الهول ترتجف ، وهاهي الجبال على امتدادها وثقلها

(٣٢) القرآن والصورة البيانية ص ٢٠٨ .

(٣٣) المزمّل ١٤ .

وضخامتها ، وعلى الوصف الملازم لها بأنها رواسى .. تصطك وترتعش ،  
وتنهار ، وتحلل وتحبس فى الأرض ..

إن ذلك كله يشبه الإنسان فى ارتجافه ، واصطكاك أسنانه حين يصيبه  
الخوف والهلع ، ويستبد به الأمر الهائل المخيف .. والرجفة من صفات  
الأحياء .. وهى صفات حيّة بعيدة عن صفات الجماد فى تماسكه وصلابته  
وبلادته .. ( ولكن التعبير القرآنى .. بعث فى الجماد حياة ، ونفخ فى  
الطبيعة روحاً ، فاستحالت آدميا يجرى عليه ما يجرى على الأحياء )<sup>(٣٤)</sup>

---

(٣٤) القرآن والصورة البيانية ٢٠٩ .



## الفصل السادس

### التصوير الحسي والتجسيم

## التصوير الحسى والتجسيم

إن التصوير الحسى جانب بارز فى التعبير القرآنى ، يرمى إلى رسم الصورة كما تحس بها النفس وهو وسيلة لتقريب المعانى ، وعقد علاقات متخيلة بين محاور حسية أو معنوية .. والتشبيه هنا أدخل فى هذا الباب .. حيث تنبذ المعانى والحالات والأشياء صوراً وهيئات ذات إطار حسى مجسم .. وفى هذا الجو الحسى المقعم بالتصوير والتخيل وعقد المقارنات ، تتخذ الكلمات فى التشكيل شكلاً دلالياً عضوياً متميزاً ، بحيث تصبح الدلالات الحسية والخيالية والمعنوية متعانقة تعانقاً ملحاً فى مجال الصورة كدلالة عامة ..

ولقد جاءت الصورة فى القرآن لتوضح هذه الدلالات على اختلاف أنواعها ومراميها لتعطى لنا عن طريق التشبيه الحسى الصورة المجسمة المؤثرة فى النفس .. إن أغلب الصور القرآنية عامرة بنبض الحياة فياضة بالحركة ، وهذه الحركة هى التى يسير عليها التصوير فى القرآن ( لَبَّتْ الحياة فى شتى الصور مع اختلاف الشَّيْآتِ والألوان )<sup>(١)</sup> ولاشك أن التجسيم أحد ملامح هذه الصور الحسية وهو الأسلوب المفضل فى تصوير القرآن . والتصوير عن طريق التجسيم يتجلى فى التشبيه الحسى كما يتجلى فى تجسيد المعنى .. ولنأخذ نماذج من القرآن تبرز لنا هذا الجانب التصويرى الأخاذ . مع العلم أن هذا اللون يستمد عناصره من الطبيعة . من نبات وحيوان وجهاد وأن الصورة تمتاز امتزاجاً كاملاً بحيث يبدو طرفا الصورة متحدين لإبراز المعنى المطلوب وتقويته ، فتصبح الصورة دقيقة ، واضحة ، أخاذة كما تقوم الألفاظ بدورها فى رسم ظلال الصورة وملاحمها وأشكالها وألوانها .. وهو

---

(١) التصوير الفنى ص ٧٢ .

في النهاية يهدف إلى التأثير في النفس كما يهدف إلى ( تمثيل الغائب حتى يصبح حاضراً ، وتقريب البعيد النائي حتى يصير قريباً دانياً )<sup>(٢)</sup> .

ومن مقومات التصوير الفني إبراز التجسيم في حالة الصيرورة والتحول .

قال تعالى :

﴿ أذلك خير نزلأ أم شجرة الزقوم ، إنا جعلناها فنة للظالمين ، إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعتها كأنه رءوس الشياطين . ﴾ الصافات ٦٢ : ٦٥

الآية من سورة الصافات : وهي مكية تتناول بناء العقيدة ، وتخليصها من شوائب الشرك . وتشير إلى ماكان يعتقد الجاهليون من القرابة بين الله والجن ، وزعمهم بأن الملائكة إناث وهن بنات الله ... ولقد ورد المعنى في آيات أخرى مما يدل على فساد المعتقد الديني . ومن ثم كان بدء السورة بالقسم بالملائكة وطوائفها . كما تؤكد الآية في سياقها على مشهدين مهمين . المشهد الأول هو جزاء الصالحين المؤمنين بالله والموقنين بالبعث ، ذلك الجزاء الذي نعموا فيه بجنة وارقة مثمرة وشراب صافٍ لذيذ وبخور عین كأمثال اللؤلؤ المكنون .. والمشهد الثاني موضوع الآية . هو جزاء المكذبين بالله وبالبعث . ذلك الجزاء الأليم القار في جهنم شراباً وطعاماً ونزلاً ..

والسورة تمتلئ بالجمال التعبيري شأن السور المكية ، التي تتميز بالقصر والإيجاز والإيقاع والصور الحسية المبهرة .. ومن هذه الصور الحسية صورة شجرة الزقوم طعام الكافرين المنكرين في جهنم .. والشجرة

---

(٢) التعبير الفني في القرآن ١٩٥ .



فتنة للظالمين .. ومحنة لهم منبتها في قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها .. ( والطلع للنخلة ، فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم وشبه برعوس الشياطين دلالة على تناهيه في الكراهة وقبح المنظر لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس لاعتقادهم أنه شر محض .. وإذا صورة المصورون جاءوا بصورته على أقبح ما يقدر ، وأهوله )<sup>(٣)</sup> .

وفي الحديث الشريف ما يدل على قبح الشجرة وسوءها ( لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معاشهم ، فكيف بمن تكون طعامه )<sup>(٤)</sup> . وحين سمع الكفار باسم شجرة الزقوم سخروا وقالوا : كيف تنبت شجرة في الجحيم ولا تحترق ، وقال أبو جهل ساخراً يامعشر قريش هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد ! إنها عجوة يثرب بالزبد . والله لئن استمسكنا منها لزرقمئها نرْقَمًا . وفي الحقيقة فإن شجرة الزقوم التي وردت في الآية غير ما كانوا يعرفون .

إن مجرد تصوير الشجرة بهذه الصورة الحسية المخيفة ، يثير الفزع والرعب والخوف ، وهي طعام دائم لأهل الجحيم ، مما يزداد الرعب والخوف وتحصل الرجة الشديدة في النفس ، ويتحقق الامتعاض والاشمئزاز والنفور من هذا الطعام الذي يتخذ شكل رعوس الشياطين في قبحها المتناهي ، وفي الخوف المصاحب بهم لمجرد ذكر الشياطين .

إن الآية تصور ماتناهي قبحه بما يمكن أن يُتخيل كوجه الشيطان ورأسه . وهو تصوير درج عليه العرب في استعظامهم للأشياء .. واستهواهم لها .. وتحدث في شأنه البلاغيون وأتوا باستشهادات تدل على هذا المعنى .. كقول امرئ القيس

(٣) الكشف جـ ٣ ص ٣٠٢ .

(٤) صفة التفسير ص ٣٦ جـ ٣ .

أيقنتلى والمشرفى مضاجعى ومسونة زرق كآنياب أغوال  
والغول : أحد المستحيلات الثلاثة ويضرب به المثل بالبشاعة والرهبة  
والتخويف .. ولشدة الصورة الحسية ، وردت شجرة الزقوم فى موضع  
آخر . ليضاف إلى المعنى دلالة جديدة .. بحيث تبدو لنا مجسمة شديدة  
التجسيم ...

فثمة شجرة هائلة ضخمة ، تنبت فى قاع الجحيم ، ثمارها هائلة بشعة  
تشبه فى بشاعتها رعوس الشياطين .. وهى كطعامها المذموم الذى لو قطرت  
منه قطرة فى بحار لأفسدتها كما جاء فى الحديث ، تحتاج إلى شراب ،  
والشراب ساخن يغرى الأجسام على مهل فيحدث العذاب الشديد الذى  
لا يطاق ، ويظل المشهد متواصلاً ... الطعام زقوم ، الماء جحيم آسن ،  
والعطش على أشده والعذاب قائم لاينتهى .. مأروع الصورة الحسية وما  
أعظم المشهد الذى ينكفىء فيه المجرمون على طعام وشراب صنيعة  
الجحيم .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ . طَعَامُ الْأَثِيمِ . كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي  
الْبُطُونِ . كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ ﴾ الدخان ٤٣ : ٤٦ .

قال القرطبي : وشجرة الزقوم هى الشجرة التى خلقها الله فى جهنم ،  
وسمّاها الشجرة الملعونة ، فإذا جاع أهل النار التجئوا إليها فأكلوا منها ،  
فغلت فى بطونهم كما يغلى الماء الحار ، وشبه تعالى ما يصير منها إلى  
بطونهم بالمهل وهو النحاس المذاب ..

ولقد جاء التصوير القرآنى للحياة فى غاية الإمتاع والإعجاز معاً ..  
فالحياة ببهرجها وجمالها واتصال الحياة فيها بالمال والبنين والأنعام والجنات  
ذات الثمار اليانعة ، والأنهار الجارية .. صورة لاتخطئها الحاسة البشرية فى

تنوعها وحركتها وجمالها وألوانها وصيرورتها .. ومن ثم ضربت مثلاً واضحاً للإقناع والتأثير معاً .

فالصورة في هذا المجال تخاطب العقل بمدركاته وحواسه والوجدان بانفعاله ومشاعره .. والغرض من إبراز هذه الصورة المتكررة ، إن الدنيا بما فيها من فتنة تصرف الناس عن الحق ، وتقف سداً أمام منابع الإيمان وينابيعه ، سرعان ما تزول وتنتهي ، ويتلاشى بريقها وخداعها ..

ومن أجل هذا المعنى ... جاء التصوير في جانبه الحسى غالباً يتضمن مفردات حسية ذات طابع جمالى ولكنه لادوام له .. ولابقاء لجماله ... بل لجماله دورة تنتهى لاحالة وانتهائها مائل أمام العيان ... تدركه الحواس وتلمسه مجسداً تمام التجسيد .. ولقد جاءت المفردات التجسيدية متضمنة ، الأرض ، والماء ، والنبات ، في فعل اهتزاز لحركة الحياة في خصوصيتها ثم تحولها إلى التلاشى .. وصاحبت مفردات الهباء ، المهشم ، الاصفرار ، الحطام ... لتوضح حركة التلاشى كلية ..

قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ، حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا .. وَازْدَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ، أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٥)

نحن الآن أمام مشهد تصويرى يمجج بالحركة ، مشهد مجسد كأنه مائل أمامنا بجرمه وثقله وتواجده وجوانبه .

(٥) يونس ٢٤ .

جاءت الآية الكريمة فى سياق قرآنى يؤكد على أن الحياة الدنيا متاع ... الحياة متاع .. ومهما طال فهو فإن ومردود .. ثم إلى الله المرجع .. فماذا تساوى تلك الحياة المتاع ؟! .. إنها سرعان ماترول ويضيع الجمال والزينة والخداع فيها ... ومن هنا نصل إلى المشهد التصويرى الحافل بالحركة والحياة والنمو ، مشهد مائل أمام العين كلما طلعت الشمس أو غربت ..

الحياة الدنيا التى لا يملك الناس فيها إلا متاعها ، ومظاهرها ، وينغمسون فى لذاتها ، فتغريهم وتخدعهم وتصدهم عن الحق .. مثلها مثل الماء الذى ينزل من السماء .. هاهو المطر يتساقط فتتلقاه الأرض فاتحة مسامها .. تستخلصه لها ، فينجم منها النبات طريا عفيا جميلا ، يمرع ويزهر ويثمر مختلف الثمار والألوان ، فيقبل عليه الناس فى فرح يأكلون وينعمون .. وتصبح الأرض وقد كساها الثوب الأخضر الجميل ، المطرز بالزهور والثمار والألوان . بهيجة فرحة مزعجة كأنها عروس قد تزينت بكافة وسائل الزينة .. يحيطها الأهل والأحباب فى فرح وزهو بجماها ومنظرها الخلاب .. يزفونها إلى زوجها .. والناس وهم يرون هذا البهاء الحسى كاملاً ، يظنون أنهم بما فعلوا ، وبما قدموا من جهد ، وراء هذه الزينة البادية الآسرة ، وأنهم أصبحوا أصحاب الأمر ، والسلطان ... وأنه لا ينازعهم عليها منازع .. وإن الثمأ دائم ومترع .. وفى وسط هذا الثمأ والخصب .. وفى نشوة الفرح والبهجة ، وفى غمرة الاطمئنان .. يتحول كل شئ وفى ومضة سريعة ، حين جاء قدر الله وقضاؤه فأهلك الأرض وما عليها من نبات وجمال .. فبدت حصيداً مشت فيه المناجل والأسنة ، فلا حياة ولا جمال .. إنما موات وموات .. وكأن هذه الأرض لم تكن يوماً عامرة بالجمال كله ... وكأنها لم تغن بالأمس .. ولعل فيما حدث للأرض مثلاً يتعظ به من يتفكر ويعتبر .

تلك حياة الدنيا والله عنده دار السلام ، حيث الأمان والطمأنينة . ( فيا  
لبعد الشقة بين دار يمكن أن تطمس في لحظة ، وقد أخذت زخرفها وأزمنت  
وظن أهلها أنهم قادرون عليها فإذا هي حصيد كأن لم تغن بالأمس . ودار  
السلام التي يدعو إليها الله ويهدي من يشاء إلى الصراط المؤدى لها ، حينما  
تتفتح بصيرته ويتطلع إلى دار السلام<sup>(٦)</sup> )

قال تعالى :

﴿والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراطٍ  
مستقيم﴾<sup>(٧)</sup>

إن الصورة المجسمة قد استوفت أبعادها ..

فها هي الحركة المجسدة تظهر في كل شيء .. حركة تنبئ عن الفعل  
والنمو والحياة فسقوط المطر حركة ، ونمو النبات حركة ، واتخاذ الزينة  
حركة ... حصد النبات وإهلاكه حركة .. ولكنها الحركة الواحدة الفاعلة  
التي تتخذ من هذه الجزئيات وسائل لها .. ولقد اتخذت الحركة . بطبيعتها  
وسيلتها المادية ، المطر ، الأرض ، النبات ... وكشفت الصورة المجسمة  
في حركتها .. داخل النفس ووجدانها ... فهاهو الفرح . والبهجة ..  
وتمضي مع الوجدان حتى في لحظة تحوله إلى غرور بالتملك والاستحواذ ..  
وتخيل صورة الناس وهم يقفون أمام منظر جميل مرفوعى الرأس يتصورون  
أنهم مالكوه .. كما لم تنس الصورة ظلال ألوان .. التي تتبدى في  
صورة النبات والأزهار والثمار ، مما يبهج النفس ويشعل الوجدان ويوصل  
صفة الغرور والزهو .. وانظر معنا إلى الحركة الخفية المنبعثة من تداخل  
المواد .. إنها حركة الصوت مجسدة في سقوط الماء ، وحركة القوم

(٦) الظلال ج ٣ ١٧٧٥ .

(٧) يونس ٢٥ .

والأنعام ، وحركة الحصيد .. أصوات .. تتعالى .. مبهجة في جانب ، ثم حزينة في جانب آخر .. ثم انظر إلى المعنى العميق في الصورة .. لتتجلى العبرة والعظة ، والهدف الدينى الذى سبقت من أجله الآية في صورتها التعبيرية الأخاذة ..

ولقد جرى البلاغيون القدماء وراء الجزئيات واعتمدوا التشبيه وأولوه بتأويلات عقلية ، بحثه .. « فالرمانى » يرى أن التشبيه في الآية ، مما لم تجر به العادة بما تجرى به العادة .. ( وقد اجتمع المشبه والمشبه به في الرينة والبهجة ثم الهلاك بعده وفى ذلك العبرة لمن اعتبر . ) وما قاله الرمانى موجز غاية الإيجاز ولكنه يعجز عن بيان مافى الآية من تصوير حى مجسد ..

والزخمشى يقترب من الصورة ولكنه يقف أيضا عند الحدود البلاغية للتشبيه ولكنه يدرك الصورة إدراكاً عاماً .. يقول ( هذا التشبيه المركب شبت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاماً بعدما التف وتكاثف وزين الأرض بخضرته .. ) كما أن الأرض أخذت زخرفها ( على التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتسبتها وتزينت بغيرها من ألوان الزين )<sup>(٨)</sup>

ومن الآيات التى صورت حال الدنيا ومتاعها قوله تعالى :  
﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعبٌ وهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفى الآخرة عذابٌ شديدٌ ومغفرةٌ من الله ورضوانٌ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور . ﴾<sup>(٩)</sup>

(٨) الكشف ج ٢ ص ١٨٧ .

(٩) الحديد آية ٢٠ .

الآية من سورة الحديد وهى سورة مدنية تعنى بالتشريع والتربية والتوجيه وبناء المجتمع على أساس العقيدة الصافية ولقد جاءت مفردات الصورة لتتلاءم مع جو التربية والتهذيب والتوجيه .. فالحياة الدنيا هنا تضمنت أوصافاً محددة .. هى اللعب ، واللهو ، والزينة ، والتفاخر والتكاثر .. وهى صفات مذمومة لأنها تشعر بالاغراق فى اللذة ، واللجوء إلى النعيم الدنيوى ... وشيوع صفات بعيدة عن الجو الدينى الصافى .. فاللعب جهد مبذول لاطائل وراءه .. كلعب الأطفال واللهو إشغال الإنسان عن طاعة الله ، والزينة مدعاة إلى التجميل بالملابس والبناء ، والتفاخر : افتخار ومباهاة بالحسب والنسب ، والتكاثر مباهاة بالأموال والأولاد .. وكلها صفات كما يرى ابن عباس ظللمات بعضها فوق بعض ...

فالدنيا فى الحقيقة - مهما بدت فى العيون جميلة مبهجة - ليست إلا محقرات ، أمام الآخرة فهى أمور عظيمة ومن ثم جاء التشبيه كما يرى الزمخشري ليعين ( حال الدنيا وسرعة تقضيها مع قلة جدواها بنبات أنبته الغيث فاستوى واكتهل وأعجب به الكفار الجاحدون لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات فبعث عليه العاهة فهاج وأصفر وصار حطاما عقوبة لهم على جحودهم كما فعل بأصحاب الجنة )<sup>(١٠)</sup>

إن المثل مضروب على عادة التعبير القرآنى .. وهو مثل حسى مجسم غاية التجسيم ... هاهى الدنيا التى تجذب الناس إليها فيلعبون ويلهون ويتزينون ويتفاخرون بالحب والمال والولد ظنا أنها دائمة ثابتة ، سرعان ماتتلاشى ويضيع كل شئ ، فلا ينفع الناس مال ولا ولد .. إلا من أقى الله بقلب سليم ... هذه الصورة فى زهوتها وجمالها وهوها كصورة الغيث تغاث به الأرض فينمو النبات جميلا طريا تياهاً بنفسه يخلب النظر

(١٠) الكشف ج٤ ص ٦٧ .

بحسن مرآه ، ثم تتسرب إليه عوامل الفناء شيئاً فشيئاً فيصفر بعد خضرة ويبيس بعد نضرة ، ويصير في النهاية حطاماً وهشيماً تذروه الرياح .. والعيون تترصده في بهجته ونمائه وفي صفوته وحطامه فيمشي الحزن في النفوس ، ويتغلغل الألم .. وهكذا ففى هذه الصورة المجسمة تبدى الدنيا ، كمتاع غرور ، استمدت قوتها من هذا الخداع فوقع الناس في شركه إلا من عصم الله ..

ويرى سيد قطب رحمه الله . إن الصورة تصور حقيقة مشاهدة لا تخطئها الأبصار ( حقيقة حين يتعمق القلب في طلب الحقيقة . حقيقة لا يقصد بها القرآن العزلة عن حياة الأرض ، ولا إهمال عمارتها أو خلافتها التي ناطها بهذا الكائن البشرى ، إنما يقصد بها تصحيح المقاييس الشعورية والقيم النفسية ، والاستعلاء على غرور المتاع الزائع وجاذبيته المقيدة بالأرض .. هذا الاستعلاء الذى كان المخاطبون بهذه السورة في حاجة إليه ليحققوا إيمانهم . والذى يحتاج إليه كل مؤمن بعقيدة ، ليحقق عقيدته ، ولو اقتضى تحقيقها أن يضحي بهذه الحياة الدنيا جميعاً (١١)

إن الصورة الحسية تتجه إلى بسط المعانى النفسية ، وتوجيه للحقائق الكونية والروحية ، وتأكيد للعبارة والعظة .. ولقد جاءت الصورة الحسية لتجسم المعانى تجسماً واضحاً ، تتخذ سمة الشيء وهيئته .. فيصير المعنى لافتاً للذهن . دافعاً إلى التأمل فى الكون .

قال تعالى تصوير حال المنافقين .

﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب

(١١) الظلال ج ٦ ص ٣٤٩١ .



الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون . ﴿١٢﴾  
وقال تعالى :

﴿ أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم  
في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق  
يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو  
شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير ﴾ ﴿١٣﴾

الآيات تكشف عن طبيعة المنافقين وترسم لهم - في نفاقهم - صورة  
حسية غاية في التجسيم والتجسيد ، بحيث توحى بخطورة ما يقوم به  
المنافقون من إحداث الفتن في صفوف المسلمين .. فلقد ضل المنافقون ،  
وكانوا يملكون أن يهتدوا ولكنهم فضلوا أن يلعبوا هذا الدور الضال .  
وهم - كطبيعة بشرية - تعتبر الهدى والضلال مقايضة وتجارة . إنهم  
يكسبون من كليهما .. لأنهم يعيشون جانبيين من النفس ، الجانب  
الظاهري ، والجانب الخفي ، ويتعاملون مع هذين الجانبين بمنطق التاجر ،  
الذي يسعى إلى الربح إننا هنا - في نظر المنافقين - أمام بضاعة معروضة ، إن  
أقبلوا عليها أرضت نفرأ من الناس ، وإن أعرضوا عنها أرضوا نفرأ آخر ،  
فلماذا لا يجمعون الرضى دفعة واحدة ولو خسروا الصدق مع النفس ، إنهم  
لا شك سيربحون .. ولكنه الربح الذي لا يثمر إلا هباءً ونفاقاً ، لأنهم موزعون  
بين الحق والباطل ... تلك تجارة خاسرة لا يجنون منها شيئاً .. وانظر كيف  
صاغت الآية الحق والباطل في مجال النفاق كبضاعة مشتراة تحتل الفصل  
والمنازعة والمبادلة .. ولكنهم كطبيعة المنافقين ، انحازوا إلى الباطل ظناً في  
الربح . لقد اختاروا مatalعم مع الطبع الفاسد فأفسده أيضاً علاوة على  
فساده ...

(١٢) البقرة ١٦ - ١٧ .

(١٣) البقرة ١٩ - ٢٠ .

إن المنافقين يتأرجحون بين الحق والباطل ، ويسعون إلى طلب الحق وفقاً للهوى .. إن المنافق يستضيء بنور الحق ( ولكن ما أن يبدو النور حتى يصاب بالعمى بسبب الهوى الذى يسيطر على قلبه ، فيضيء النور ما حوله ، ولا يستضيء به وهو الذى استوقد النار )<sup>(١٤)</sup> وطلبها نوراً ودفناً ، ولكنه يصبح أصم لا يسمع لنداء الحق ، أبكم لا ينطق بالحق ، أعمى لا يميز بين الأشياء ، مطموسة بصيرته ، لا يفرق بين باطل استهواه وبين حق أبلج .. هذا المنافق الذى وقع فى دوامة الخيرة بين الحق والباطل يتساوى فى صورته بصورة الذى استوقد النار ... وطلبها وفجأة يعم الظلام ويخيم على المكان ويذهب بالنور الذى طالبوا به ..

قال ابن كثير : ضرب الله للمنافقين هذا المثل فشبههم فى اشترائهم الضلالة بالهدى ، وصيروهم بعد البصيرة إلى العمى ، بمن استوقد ناراً فلما أضاءت ماحوله وانتفع بها ، وتأنس بها وأبصر ما عن يمينه وشماله .. فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره وصار فى ظلام شديد . لا يبصر ولا يهتدى ، فكذلك هؤلاء المنافقون فى استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى ، واسحبابهم الغنى على الرشد ، وفى هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا ، ولذلك ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات الشك والكفر والنفاق لا يهتدون إلى سبيل خير ولا يعرفون طريق النجاة )<sup>(١٥)</sup>

وتمضى الآية الثانية فى سياق المعنى القرآنى لترسم صورة حسية أخرى تمثل الموقف تمثيلاً قوياً ، وترسم لنا أشكال وهيات هؤلاء المنافقين وقد وقعوا فى براثن الخيرة والتردد والتشكك والظهور بمظهرين كليهما مخادع .. وانظر إلى الصورة المخادعة التى رسمتها الآية .. لتتنطبق حسياً

(١٤) القرآن المعجزة الكبرى ص ٢٥٣ .

(١٥) مختصر ابن كثير ج ١ ص ٣٦ .

على هؤلاء .. فثمة قوم أصابهم مطر شديد . المطر ينصب انصباباً ، يتساقط من سحب سوداء داكنة الظلمة ، غطى الأرض بظلام دامس .. لقد تراكم الغمام فأظلم ، وتراكمت الظلمة فاشتدت ، واختلطت السحب المتراكمة وتدافعت في حركة قوية ، صاحبها رعدٌ يصك الأذن ، وبرق يخطف البصر .

فالسواقي تدعم المكان ، وتصيب القوم بالفرع والخوف والدوى الهائل .. وتحرك أيديهم حركة تلقائية إلى الآذان .. في اضطراب وخوف ، تحاول أن تمنع العذاب المنتظر أو تقلل من حدة الصوت وصخبه . وكادت الأصابع تتداخل في أعماق الأذن حتى تحترقها .. إنهم من الخوف مزلزلون .. يأتيهم الموت مظلماً ، وراعداً ، وبارقاً .. وكأنهم ينتظرونه ، فهم واقفون تحت مشيئته ...

وفي هذا تصوير لنفس منافقة ، تائهة ، فارغة ، لانستقر على حال ولا تطمئن إلى قرار . إنهم مضطربون لأنهم لا يؤمنون ، فالإيمان طريق الطمأنينة والسكينة . ( وإذا كان التشبيه السابق يصور حالهم في طلب الدليل وعدم الأخذ به لغلبة الهوى ، وسيطرة الشهوة ، والحدود الموروثة ، فهذا التشبيه يصور حالهم من هلع مستمر ، وخوف من غير مخوف ، ولذلك يقول بعض علماء النفس : إن النفاق منشؤه ضعف في النفوس )<sup>(١٦)</sup>

وهاهو البرق شديداً قويا لامعاً يكاد يذهب البصر .. يخرج من بين ركام الغيم فيضي الطريق . فيمشوا في ضوئه .. مهتدين به .. ولكنه حين يختفي يكفون عن السير ويثبتون في مكانهم .. لقد وقعت حركتهم في شلل مستمر وفعل متأرجح مرتبط بظهور البرق واختفائه .. ( فإذا صادفوا من

---

(١٦) القرآن المعجزة الخالدة ص ٢٥٤ .

البرق لمعة انتزوها فرصة وخطوا خطوات يسيرة ، وإذا خفى وفتر لمعانه وقفوا عن السير وثبتوا في أماكنهم خشية الوقوع في حفرة .. (١٧) .. والصورة تصوير لحال المنافقين في تردددهم وحيرتهم .. فهم حيناً يهتدون بالنور ، ولكن سرعان ما تظلم نفوسهم فيظلون على نفاقهم .. ولو شاء الله - وهو القادر - لأفقدتهم السمع والبصر على الحقيقة .

كما أن الصورة توضح أن أسباب الهداية بين أيديهم وهى في ذاتها مضية ، ولكنها تظلم عليهم فيستمررون في نفاقهم وغيهم .. إن المشهد عامر بالحركة واللون والصورة والوجدان .. ولقد تضافرت هذه العناصر لتجعل منه مشهداً حياً يفيض بالحياة والحركة ( إن هذه الحركة في المشهد لترسم عن طريق التأثير الإيحائي ، حركة التيه والاضطراب والقلق والأرجحة التى يعيش فيها أولئك المنافقون ... فهو مشهد حسى يرمز لحالة نفسية .. ويجسم صورة شعورية ، وهو طرف من طريقة القرآن العجيبة التى تجسم أحوال النفوس كأنها مشهد محسوس ) (١٨)

ومن قبيل هذه الصورة المتراكمة ، في جزئياتها ، ونسقتها ، ماصورت به الآيات القرآنية أعمال الكفرة التى تتخذ شكل البر والخير ... ظنا منهم أن فيها نفعاً ، أو نجاة من العقاب الإلهى فى الآخرة .

قال تعالى :

﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ، يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب . أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم

(١٧) صفوة التفسير ج ١ ص ٣١٨ .

(١٨) الظلال ج ١ ص ٤٦ .

يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴿١٩﴾

سياق الآية جاء بعد ذكر حال المؤمن الصالح ، الذى وفاه الله حسابه .. والآية ترسم لنا مشهدين حافلين بالحياة والحركة فى صورتين مجسدين .

### الصورة الأولى :

إن عمال الكفرة التى قد يتصورونها خيراً وبركة ، وأنها تنجهم من عذاب الله فى الآخرة ، أعمال محبطة ، لافائدة منها ، ولا فلاح فيها .. لقد ضاعت الأعمال والآمال وتلاشى الأمل بالفوز والنجاة .. مثلهم مثل الظامى الذى وجد سراباً يلتصع فى فلاة تقتل الإنسان بجحرها ، سراباً بدا على بعد كالماء الرقيق ، فيلتصع فى ذهن الظامى صورة الماء المتراكم فى قبة ، فيجرى متلهفا طالباً الماء ، وفجأة يتحرك المشهد حركة عنيفة متضادة تجهز على الأمل ، وتحبط الرغبة ، فها هو يصل إلى المكان الذى تصوره ماءً فإذا به ( يجد المفاجأة المذهلة التى لم تخطر على البال ، المرعبة التى تقطع الأوصال ، وتورث الخيال « ووجد الله عنده » ، الله الذى كفر به وجحدته وخاصمه وعانده ، وجده هنا لك ينتظره .. فوفاه حسابه ) (٢٠) .

وهكذا يتحرك المشهد حركتين ، حركة اللهفة ومن ثم نلمح السرعة فى الحركة . واللهفة ترسم فى الخيال صورة جميلة ، هى فى الحقيقة إنقاذ للظامى من صوت مؤكد فى الصحراء .. ومن ثم نجد الدافع النفسى إلى الإسراع للقبض على هذا الأمل .. ونجد عبارة ( يحسبه الظمآن ماء ) كاشفة حال النفس فى تورثها وخوفها وأملها - نفس الظامى واقعة بين فعلين هما الموت / الأمل . ثم نجد الصورة تنقلب فجأة فإذا الأمل سراب . مثله مثل

(١٩) سورة النور ٣٩ — ٤٠ .

(٢٠) الظلال جـ ٤ ٢٥٢١ .

سراب الماء . ويتحقق الفعل الأول وهو الموت .. إبراز حقيقة عمل الكفار .. فلا أمل فيه ولا خير .. إنه عمل ميت إن صح التعبير .

وفي حركة النفس الانسانية بين الخوف من الموت ، والرغبة في الحياة ، تأتى المفاجأة . لقد حل الفعل الإلهى ، وتواجد وجوداً عينياً أو شبيهاً به . بغتة سريعة ، فالله بالمرصاد . وفاه جزاء الفعل .. فعل الكافر المراد فى الآية .. والذي تصوره خيراً .

وتنقلنا الآية إلى مشهد آخر وصورة أخرى ... مشهد تراكمت الأشياء فيه بعضها فوق بعض .. كأعمال الكفرة المتراكمة .. فالصورة حافلة ، يتسبدها اللون والحركة .. أما اللون فيتمثل فى الظلام الدامس الذى لا يرى الانسان فيه يده .. وأما الحركة ففى ذلك التدافع الرهيب الذى يأخذ بأقطار النفس .. تدافع الموج وتراكم السحاب .. وتلك الحركة مصحوبة بدوى هائل يصلك المسامع ويلفت الانتباه .

إن جزئيات الصورة تشير إلى المعنى المراد من أعمال الكفرة التى جاءت نتيجة ظلمة نفسية ، وضلال دينى .. فمهما تراكمت الأعمال التى يرونها خيراً .. فإنها قطع من الضلام ، ومهما صاحب الفعل من دوى لإعلان الأعمال .. إلا أنه دوى ناتج عن حركة نفسية مظلمة ، تكشف قاع النفس وغورها .. إنها نفس ضالة مظلمة جنحت فلم تهتد بنور الله .

إن الظلم ظلمة منقطعة عن نور الله الفائض فى الكون .. وضلال لا يرى فيه القلب علامات الهدى وهى قريبة .. فالظلمة تطبق بعد الالتماع السراى الكاذب ، ويتبدى الهول الشديد فى تلك الظلمات ، ظلمة البحر اللجى تدافعت أمواجه وتراكمت ، موج من فوقه موج ، ويظلل المشهد سحاب كثيف يحجب النور والضياء ، فتتكاثف الظلمة وتشتد ، وكأنما تلمس باليد . وتمتد اليد ، أمام العين فى حركة تحقق للرؤية ، فلا ترى

ولاتشاهد .. وكيف ترى اليد في هذا الظلام الكثيف الذى شمل المشهد كله .

وهكذا .. تكشف الصورة عن حقيقة أعمال الكفرة ومعتقداتهم . فمن لم يهده الله للإيمان وينور قلبه بنور الإسلام لم يهتد أبد الدهر .. ولعلنا لو قارنا بين حال الكافر هنا ، وقد افتقد النور والهداية بحال المؤمن الذى غمره النور وشملته الهداية .. لاتضحت الصورة كاملة بين نموذجين بشريين . نموذج المؤمن ونموذج الكافر .. وهذه الأعمال التى تصدر عن الكفرة .. شئ معنوى لايمكن من نفوسنا ، ولايستقر فى أذهاننا ، إلا إذا أتى فى معرض الحس والمشاهدة . فمرة يشبه بالرماد الذى تذروه الرياح الهوجاء فى يوم عاصف شديد العصف ومرة بأنه السراب الخادع الذى نطمئن إليه ثم تنكشف لنا حقيقة .. ومرة بأنها الظلمات المتراكمة لانتبين فيها شعاعاً من نور الحق . ( وكل هذه صور حسية تراها الأعين فتطمئن إلى وقوعها وحتمية مآلها ، وتزيل كل شك وتردد فى ذهن السامع بمصير أعمال الكافرين )<sup>(٢١)</sup>

إن التشبيه من أدوات التصوير الحسى ، وهو سرٌ إعجازى فى التعبير .. بما يتضمنه من جمال لفظى ، وإيقاع نغمى وتصوير حى متحرك ، فتبدو المعانى ، والعواطف ، والحقائق المجردة صورة محسوسة ، فى مشهد حى ، كأنه يرى ويلمس ويسمع رنينه .

---

(٢١) القرآن والصورة البيانية ص ٩٦ .

## الفصل السابع

### الأداء التصويري في آيات الكون والطبيعة



## الأداء التصويرى فى آيات الكون والطبيعة

هذا مجال تعبيرى برز فيه التصوير بروزاً واضحاً فى تنوعاته الجمالية . فالقرآن الكريم حافل بآيات الله فى الكون وبمشاهد الطبيعة على تنوعها . بما يلفت الذهن ويثير الحس . فىرى فى النفس البشرية . التروع إلى التأمل وإدراك مظاهر الجمال فى الكون . والجمال من أبرز القيم التى تتسرب إلى دواخل النفوس فتزهزها هزاً . فهو يحمل قيمة المتعة النفسية ودلالة الاستجابة معا . وإذا كانت النفس الانسانية تمر على مشاهد الطبيعة مروراً بارداً من باب العادة ، فلقد حرص القرآن الكريم على سلخ النفس من عاداتها الرتيبة وإيقاظها من غفوتها الباردة ، لتتفتح على عالم مترع بالجمال والجلال . فالنفس اليقظة المدركة المفتحة هى التى تنزع إلى الخير والحق والجمال .

والقرآن يدعو الانسان إلى أن تتفتح بصيرته على آيات الله فى الكون ، ويستشعر من ورائها يد القدرة القادرة الخلاقة المبدعة .. فى أسلوب يأخذ بمجامع النفس ويوقظها من إلفها وعاداتها . ( إن أسلوبه الساحر ، وجوه المشرق ، وروحه الصافية ، لتنتقل الانسان نقلا من إلفه وعاداته ، وتهزه ليستيقظ ، تلمس - برفق - أعصابه المكشوفة ، فتعطيه الشحنة كاملة ينقلها إلى مركز الحس بكامل تدفقها . ومن ثم يعيش الأشياء كأنها تحدث لأول مرة ويستمتع بسحر هذه الجدة ومتاعها العجيب )<sup>(١)</sup> والأداء التصويرى فى القرآن الكريم يتناول آيات الكون فى حركة مليئة بالحياة - جمادها وكائنها - فى تنوع مصاحب ، من لون وصوت ، وحركة وظلال .. وتتأكد فى السياق التصويرى قدرة الله التى خلقت هذه الكائنات كلها وبثت

---

(١) منهج الفن الإسلامى محمد قطب ص ١٤٤ - ١٤٥ .

فيها نبض الحياة الهادر في أسلوب تعبير معجز .

ولنحاول أن نتعرف على صورة الطبيعة في القرآن عبر نماذج مختارة ، لأن الاستقراء يحتاج إلى دراسة مطولة .. وأنا فقط نشير إلى هذا الجانب الإبداعي في مجال التصوير القرآني .

قال تعالى :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، آيات لقوم يعقلون . ﴾ (١)

إن هذه الآيات الكريمة تنبه حواس الانسان وتفتح عينه ومداركه للتوجه إلى مافي الكون من جمال إلهي . والآيات تتضمن ثنائيات جمالية .. تستحضر الطبيعة في مظاهرها المبدعة المعجزة .. وفي كل ثنائية يتبدى التصوير الفني في أروع مجالاته قاطبة ...

## الثنائية الأولى

وتتمثل في خلق السموات والأرض ..

هذا الكون الهائل اللامتناهي العامر بالآفاق والأجرام والنجوم والكواكب يمضي في تناسق عجيب ، وفي مسرى محدد لايميل ولايختل .. في فضاء هائل يجذب العين وينفض القلب . فضاء يكشفه سرُّ إلهي .. وهذه الأرض باستوائها ، وجبالها ووديانها ودوابها ونباتها ، وأعماقها المجهولة تقف في جمال مستمر تحت العين على التمتع والعقل على التأمل والنفس على الرهافة

---

(٢) البقرة ١٦٤ .

وفيضان الشعور ..

والتعبير في الآية جاء عاما .. فصلته آيات كثيرات تتناول السماء والأرض في جوانب تصويرية متنوعة :

قال تعالى : ﴿ تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً وجعل فيها سراجا وقمراً منيراً ﴾<sup>(٣)</sup>

وقال تعالى : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ﴾<sup>(٤)</sup>

تلك هى السماء الهائلة بما فيها من كواكب عظيمة ... هذه الكواكب السيارة .. فى بروجها تمضى بقدره الله سبحانه .. وتأمل كلمة « بروج » وهى تصور المكان الذى استقرت فيه هذه الكواكب الهائلة .. والبروج هى منازل الكواكب السيارة وهى تشبه - لتوضيح الصورة للذهن - القصور الفخمة التى هى منازل للناس ..

هذه الكواكب العملاقة ، تتزين بها السماء فتبدو فى رقعتها الزرقاء .. والضوء يلتمع فيها .. غاية فى الجمال والروعة الآسرة .. ومن هذه الكواكب مايرتبط بحياة الكائنات على وجه الأرض ، كالشمس ، المتوهجة .. الدائمة التوهج ، الذاتية النور والحرارة تتألق فى كبد السماء ، تشع الحرارة والدفع ، فتستمر الحياة على وجه الأرض . وكذا القمر المنير الذى يكتسب نوره من الشمس ، يتيه بضوئه ليلاً ... ويرسل نوره شعاعاً يخفف من ظلام الليل ، ويجعل الانسان ساجداً فى تأمل المنظر الليلي وسط دائرة الضوء المشعة ..

---

(٣) الفرقان ٦١ .

(٤) قى ٦ .

تلك السماء في ارتفاعها واتساعها وإحكامها مرفوعة بلا عمد مزينة بمصابيح هي الكواكب والنجوم ، متماسكة ، متواصلة في تماسكها ومنازلها وحركتها السيارة .. لا يصيبها تشقق ولا تصدع ... كل مسير وفق المشيئة الإلهية فالسماء صفحة من كتاب الكون ، فيها الزينة والجمال والبراءة من الخلل . فلينظر البشر جميعا إلى هذا الجمال الإلهي .. يظلمهم كأنه السقف فيه من آيات البهاء والجمال ما يدعو النفس إلى التمتع والقلب إلى النبض والعقل إلى التدبر .. وتناولت الآيات الأرض في صور متعددة منها :

قال تعالى : ﴿ والأرض مددناها . وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾<sup>(٥)</sup>

وقال تعالى : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحُمْرٌ مختلف ألوانها وغرايب سود . ﴾<sup>(٦)</sup>

وهاهى الأرض طرف الثنائية الأولى .. مبسوطة على أرجائها .. مدّها الله وسواها على هيئة تصلح للحياة .. وجعل الله فيها تلك الجبال الثوابت تمنعها من الاضطراب ، والخلل حتى يقر الناس عليها في قرار هادئ ساكن وديع .. إن الجبال تبدو فوق هذه المساحات الأرضية الممتدة علامات خارقة للقدر ، وهى أيضا إشارات إلى جمال المكان الذى يتنوع بين الارتفاع والشموخ والامتداد والخضوع ... وتحدث الصورة هزة في النفس .. وقد كسا هذا الامتداد بانفساحه ووديانه وقمم جباله .. النباتات بما تحوى من جمال فى اللون والشكل وتنوع فى البهاء والحسن .. لوحة مكتملة خالصة فى تكوينها لإبداء جماليات فى المكان . وهى فى المعنى

(٥) ق ٧ .

(٦) فاطر ٢٧ .

العميق دلالة على القدرة الإلهية ..

ويلتقى الجمال في السماء والأرض ويصنع صورة باهرة .. سقفا مزينا بالمصاييح في غلالة زرقاء .. يطل من على أرض ممتدة مركوزة بالجبال مزينة بالنبات البهيج .. فأنى يذهب البصر يجد الجمال ممثلاً في حكمة الخالق .. وانظر إلى المشهد الطبيعي الجميل في آية فاطر .. لترى التنوع الجمالي ممثلاً في اللون فالنبات الزاهي بلونه الأخضر يخلب اللب ، والثمار على أغصانها تتيه بجمالها ولونها وشكلها الأخاذ .. اللون سيّد المشهد يتجلى في الثمار كما يتجلى في الجبال الملونة الشعاب ما أروع الألوان الزاهية البيضاء والحمراء والسوداء .. والخضراء والحمراء وغيرها .. ممزوجة في نسق لوني بديع .

تلك لفظة كونية إلى مافي الطبيعة من جمال أسر . لفظة تطوف بالأرض نباتها وثمارها لفظة تجمع بين الحياة في جمالها وأناقها وروعها ، وبين الجماد في سكونه وشموخه . ( واللفظة إلى ألوان الصخور وتعددتها وتنوعها داخل اللون الواحد ، بعد ذكرها إلى جانب ألوان الثمار ، تهز القلب هزاً ، وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالي العالي ، التي تنظر إلى الجمال نظرة تجريدية فتراه في الصخرة ، كما تراه في الثمرة على بعد ما بين طبيعة الصخرة وطبيعة الثمرة ، وعلى بعد ما بين وظيفتهما في تقدير الانسان . ولكن النظرة المجردة ترى الجمال وحدة عنصراً مشتركاً بين هذه وتلك ، يستحق النظر والاتفات )<sup>(٧)</sup>

إن ثمة لوحة متسعة ، انسجمت فيها الألوان ، وطرّز كلّ جانب من اللوحة شكل جمالي ما يختلف عن الآخر .. من سماء وأرض ونبات وجبال .. وحدات متناثرة على رقعة اللوحة .. تنوعت واختلقت ألوانها ..

(٧) الظلال ج ٥ ص ٢٩٤٢ .

فأصبح التنوع والوحدة محوراً جمالياً أصيلاً .

## الثانية الثانية

وتواصل الثانية الأولى - السماء والأرض - بغيرها من الثنائيات الأخرى لتوضح أن الوحدة هي الخيط الواصل بينها جميعاً وإن تنوعت في الشكل والوسيلة . وهذه الوحدة هي الدلالة العميقة المصاحبة لكل هذه الأشكال والوسائل في التعبير عن القدرة وفي التأكيد اليقيني على الوحدةانية .

## واختلاف الليل والنهار ...

الليل والنهار يتعاقبان ، الليل في سكونه والنهار في صحبه ، الظلام الذى تتلألأ فيه النجوم منيرة كقطع اللؤلؤ والقمر يتهدى في بحره الفضى ، والنهار المغموس في حمأة الضوء تبعثه شمس كالسراج ذاتى الضوء ، العتمة الطامسة لمعالم الأشياء تبدو الأشياء فيها أشباحاً ، والإشراق الذى يملأ الكون نوراً والقلوب بهجة ومتعة .. الغروب المؤذن بتلال الظلمة الراجفة للقلوب .. والفجر بداية النهار يترنم بأهازيج الحياة الجديدة ..

كل ذلك وغيره دلالات تصاحب اللفظين الليل والنهار .. وفي كل منها مثيرات وجدانية تهز المشاعر وترقق القلوب ، وتصل الحس وترى النوق ، وتدرب الإدراك .. وكما أوحى هذه الصفات في مشاهداتها الحسية بأجمل القصائد وهى تصف جانباً من جمال الفجر فى انبثاق ينابيع الحياة ، وفى غروب الشمس وقد أذن الليل فى الديب وقد خلعت صفرة الأفق وارتنى سترته المظلمة .. كما أوحى بأعظم المشاهد التأثرية والطبيعية سجلها الرسام فى لوحات بديعة تنطق بجمال الكون الذى أخذت منه واستقت .

ولكن هذه المشاهد البالغة الجمال قد تفقد في نظر الانسان -  
 الخامل - روعتها مع إلف العادة ودوام تكرارها .. ولكن القلب المؤمن  
 يتجدد في نبضه هذه المشاهد ، ويتلقاها في دفقها اليومي كأنها مشهد جديد  
 ينطق بالجمال والجلال معاً . والتعبير أيضا جاء مجملًا :

والآيات كثيرة :

قال تعالى : ﴿وَأَيَّةٌ لَهُم اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمُ  
 مَظْلُمُونَ﴾<sup>(٨)</sup>

وقال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ  
 سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا . ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا . وَهُوَ  
 الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سَبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾<sup>(٩)</sup>

وقال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصَرًا  
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ﴾<sup>(١٠)</sup>

مشاهد الليل والنهار وفيرة .. وفي كل مشهد ظلال من التصوير  
 يضاف إلى غيره من المشاهد الأخرى .. فنحن في آية يس .. أمام الليل في  
 قدمه الخيث ، والنهار أمامه يتلاشى شيئاً فشيئاً حتى يختفي ثم تبدى  
 الظلمة غاشية . وتتوالى إلى الحركة الخفية المتجاذلة بين الليل والنهار ..  
 يوماً وراء يوم ، وهى مع تكرارها عجيبة تدعو إلى التأمل والتدبر .

والتعبير القرآنى فريد في نوعه فقد عبر القرآن عن انفصال الليل  
 والنهار بمفردة ( نسلخ ) .. والنسلخ حركة فيها حدة وفيها تمهّل حذر ،

(٨) يس ٣٧ .

(٩) الفرقان ٤٥ — ٤٧ .

(١٠) يونس ٦٧ .

وتحتاج إلى حركة تتميز بالطاقة وبذل الجهد .. وبعد هذه الحركة الحذرة الدعوب في فصل الأشياء المتلازمة - كتلبس الجلد باللحم مثلاً - إذا بالمفاجأة تتجلى وينحسر الضوء وتعم الظلمة .. حركة مرسومة في إطار لوني متمازج سرعان ما يتشكل ويتحدد بعده .. فتبدو الظلمة قادمة طاغية ، والضوء منحسر مودّع ..

تلك لحظة الغروب الجميلة التي تصور نهاية حركة الجدل الخفية بين النهار والليل .. ما أجمل التعبير القرآني وهو يصور النهار متلبساً بالليل . ثم ينزع الله النهار من الليل فإذا الظلام طاغ .

ومع الجمال التصويري تأتي الحقيقة العلمية لتوضح حركة الليل والنهار .. والآية إشارة إلى هذه الحقيقة . فالأرض كروية تدور حول نفسها ، فما يواجه الشمس نهار ، وما لم يواجهها ليل . فما أجمل هذا التعبير التصويري المعجز لحقيقة كونية تتوالى على مرّ الدهور .

وفي آيات الفرقان .. تظهر لنا صورة جميلة مركبة من ظلال لونية .. مضطربة بحركة متوالية .. مجللة برحمة إلهية .. وانظر إلى حركة الظل البطيئة الوئيدة التي تبدو في بطئها كما لو كانت سكونا قائماً .. إن التعبير بكلمة ( ساكنا ) يجسم لنا هذه الحركة البطيئة ، ويعطيها مساحة في الخيال لم يكن ليكتسبها لوجاء الوصف في أسلوب تجريدي ، خالٍ من التصوير والتخييل .

إن مشهد الظل والضوء يرسم لنا لوحةً على الأرض . ( يمر به الناس غافلين .. وفي تأمله وتتبع حركته الوئيدة التي تكاد تتم في الخيال - وإن كانت معروضة في العيان - مايلمس النفس ، ويؤثر في الوجدان ويتيح الفرصة لألوان شتى من التأملات . ذلك منظر الظل الذي تلقية الأجرام فيبدو



ساكنًا وهو يتحرك ببطءٍ لطيف) (١١)

وتُظهر تلك الحركة ، القدرة الإلهية في الفعل كله .. ( ثم قبضناه إلينا .. )  
فهذه العبارة القرآنية تعطى للمشاهد غنىً عميقاً ومعنى إلهياً رحيمًا .. وروحاً  
جديدة . فالعبارة ( تُخرج اللوحة من نطاق الأرض المحدود الذي كانت فيه  
فإذا فيها أمر آخر غير هذه الأرض .. إنه يد الله سبحانه تمتد لتقبض الظل ..  
إن الظل المتجسم هنا في الأرض لم يُعد كائنًا أرضيًا .. ولكنه صار شيئاً  
غيبياً .. مبدؤه في الأرض .. ونهايته عند الله .. ) (١٢)

ولنتأمل مشهد الظلال وارتباطها بالسياق وصورة الليل وقد سلخ منه  
النهار . فالظلال أثناء الغروب تمتد وتطول ، وتمتد وتطول ، لتختفى فجأةً  
باختفاء الشمس . لقد انطوت في ظل الليل والعتمة المظلمة .

ويربط سيد قطب - رحمه الله - بين هذا المعنى والسياق القرآني في  
سور القرآن فيقول : ( إن هذا القرآن الذي ينزل على قلب رسول الله ﷺ  
كان هو البلسم المريح ، والظل الظليل ، والروح المحيى في هجير الكفر  
والجحود والعصيان . وإن الظل - وبخاصة في هجير الصحراء المحرق -  
لهو المشهد الذي يتناسق مع روح السورة كلها وما فيها من أنداء  
وظلال ) (١٣) وتتحرك صورة الظلال المرفرفة الممتدة المتطاولة فتتداخل في  
مساحة الليل المعتم .. الليل الذي صورته الآية في صورة بديعة . والذي ستر  
الكون كله وفرش عليه عباءته المعتمة - كما يستر الثوب البدن - فبدا  
الكون كأنما يلبس ثوباً أسود مطرزاً بخيوط بيضاء مبثوثة من عل .. وفي

(١١) التصوير الفني ص ٦٩ .

(١٢) منهج الفن الإسلامي ص ١٥٠ .

(١٣) الظلال ج ٥ ص ٢٥٦٩ .

الليل تهدأ الحركة وينقطع الصخب ويهجع الكون انسانه وحيوانه وهوامه ..  
في نوم خبا فيه الحس وخفت فيه الشعور بالوعى .. كأن الكون مقبور في  
سبات عميق .. ثم تتوالى الحركة في الزمن فظهر في المكان حين ينسحب  
الليل وينفض عن الكون لباسه الليلي .. ليتنفس الصباح فجراً جديداً فيه ألق  
الحياة وحيويتها .. مؤذناً بنهار مبهج يمتلئ بالنور والحركة والحياة ..  
وكأنما ثمة نشور وبعث من موت صغير .. ومن ثم عكست المفردتان  
( لتسكنوا ) و ( مبصرا ) ، نوع الحركة في كل من الليل والنهار . فالليل  
الذى يسكن الناس فيه ، ويهدأون ، والنهار الذى فيه يبصرون ، ظاهرتان  
كونيتان متصلتان بحياة البشر .. ذلك أن فطرتهم الداخلية تفهم عن هذا  
الكون لغته الخفية .

### الثائية الثالثة

وتأتى الثائية الثالثة لتصور لنا مشهداً جمالياً ، مثيراً للحس ، وملفتاً  
للنظر .. مشهداً يتناول الفلك .. والبحار ..

### والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس .

والمشهد عميق الدلالة .. فهذه البحار المتلاطمة ، والأمواج المتراكمة  
بلا حدود .. تهدر كل يوم بين شواطئ مترامية الأطراف ، ومسافات  
منفسحة وتنكسر الموجات على صدر الشاطئ زبدًا رايباً .. وترف الطيور  
فوق ثبجه انتظاراً للحظة قنص نادرة ... وتختفى شمس الغروب فى خدرها  
الوردى فيستحيل الموج لوناً ممزوجاً بين الأحمر والأصفر .. وتلاعب  
الأسماك بزعانفها وأذيالها فتبدو كرقصات موقعة النغم .. وهو نفسه -  
البحر - الذى يثور ، ويعصف ، ويلطم ، ويلعب الأشياء فى جوفه فلا تعود ..

كأنه الحياة ، سكون وصخب ..

وفوق أمواج البحار تمضى السفن العملاقة .. فتظهر على البعد نقطا صغيرة محاطة بزرقة الكون مائه وسماؤه ، تمضى وسط السكون ، أو وسط العواصف الشديدة ... تحمل الناس إلى بلاد الله المختلفة .. ولاشئ إلا قدرة الله ورعايته تحمل تلك النقاط الصغيرة على الموج الساكن حيناً والصاخب حيناً آخر ..

ولقد ربطت الآية بين الجمال والجلال والمنفعة .. فما من نفس بشرية لاتتعجب اندهاشا وتلذذاً من رؤية البحار في أنفاسها الممتد ، وما من نفس بشرية ، لا يأخذها الخوف من عمق عميق دامس الظلمة ، ومن حركة ريح عتية تعصف بالسفن الماخرة .. وما من نفس بشرية لاتلذو رقة وعذوبة حين تبدو الأشياء بقعاً صغيرة على سطح بحر لا يرى له شاطئ .. وليس إلا الرعاية الإلهية ملاذاً للأنفس ... هذه البحار أداة نفع هائلة للبشر ، ولا حدود لنفعها .

والآيات في هذا المحور الطبيعي كثيرة .. ولنأخذ نموذجاً ..

قال تعالى : ﴿ الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾<sup>(١٤)</sup>

وقال تعالى : ﴿ وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً ، وتستخرجون حلياً تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾<sup>(١٥)</sup>

وقال تعالى : ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتى إذا كنتم

(١٤) الجاثية ١٢ .

(١٥) فاطر ١٢ .

في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف  
وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له  
الدين لئن أنهيتمنا من هذه لنكوننّ من الشاكرين ﴿١٦﴾

تتجلى رحمة الله بعباده في تسخير البحار وتذليلها لخدمة البشر ،  
فتسير السفن فوق موجه رخاء .. بمشيئته وإرادته دون أن يبتلعها البحر في  
جوفه العميق وفيها نعم كثيرة تنفع الناس .. لقد خلق الله البحر بخصائص  
معينة ، وهدى الانسان إلى إدراك هذه الخصائص للانتفاع بها تجارة وطعاماً  
وحياة متكاملة من صيد وزينة ومعرفة ورياضة .. وسائر مايبتغيه الانسان من  
فضل الله في البحار .. وهذا الانعام يواجه بالشكر . والقرآن يربط قلب  
المؤمن بما في الكون المحيط به ليدرك الوحدة في المصدر والاتجاه .

ثم انظر إلى الجمال الالهى في هذا التنوع في مجال الماء ، فثمة الماء  
العذب السائغ وثمره المالح الأجاج . ووراء ذلك حكمة .. فالماء العذب قوام  
الحياة ، أساس النمو والبهاء في مختلف جوانب الأرض من نبات وحيوان  
وبشر .. وماء البحار المالح يحدث التوازن .. وبه تكتمل دورة المياه  
المعروفة .. وانظر أيضاً إلى التناسق المتوازن بين مشهدين يقعان تحت  
الحس ، يشعان بالجمال ويختلفان في التنوع ، يصدران عن وحدة ،  
ويتفارقان في الشكل .. هذا التنسيق الجميل لا يأتي مصادفة ، وإنما هو  
محكوم بقدره الله .

وهذان البحران - العذب ، والمالح - لا يلتقيان .. إنها حقيقة  
علمية .. فمياه الأنهار تدخل في البحار وتمتد دون امتزاج ، ولا تدخل مياه  
البحار في الأنهار ( ولولا هذا الضغط التفاضلي الموجه من الماء العذب إلى

الماء المالح .. لتسربت الأملاح إلى المياه العذبة ودخلت فيها .. وأصبحت كل المياه على سطح الأرض مالحة .. واستحالت الحياة .. (١٧) وتلك الحقيقة تدعو إلى التأمل والتدبر في خلق الله لادراك ما فيه من حقائق تنفع الناس، ولتذوق ما فيه من تصميم بديع، ونظام دقيق .. وهما صفتان للجمال ...

وبالرغم من هذا التنوع والتفارق فإن في كل منهما متعة الحياة ولذائذها الطيبة .. فهي هي الأسماك بأحجامها وأشكالها تترجح في الموج عذبة وملحة .. متعة للنظر، ولذة في الطعام، ومجال للصيد، وواقع للتجريب .. حياة في بطن الماء تمتلئ بالحركة والحيوية .. فضلاً عما تتمخض عنه البحار من حلى وزينة كاللآلئ والمرجان .. وعلى السطح تمخر السفن طافية، شاهقة كالأعلام ..

ثم نأتى لنرى مشهداً طبيعياً آخر في البحار حين تهبج وتلاطم الأمواج وتعصف بكل شيء فالرياح عاتية، والموج يحيط بالسفينة من كل جانب والهول يقبض على الأنفاس والسفينة تترنح، يلطمها الموج فيعلو بها ويحطها في حركة عنيفة تتناسق مع حركة الوجدان الخائف الناشب في النفوس، إنها ريشة في مهب الرياح .. وتتوجه القلوب إلى بارئها أن ينجها من هذا الكرب .. أمواج ورياح وانفعال .. وتناسق في الهول ( إنه مشهد كامل لم تفتنا منه حركة ولا خالجة .. مشهد حادث .. ولكنه مشهد نفس ومشهد طبيعة، ومشهد نموذج بشري لطائفة كبيرة من الناس في كل جيل ) (١٨) وما أروع اللوحات الطبيعية التي صورها القرآن للبحار ..

---

(١٧) انظر كتاب الإسلام والنظر في آيات الكون ص ١١٠ وما بعدها .

(١٨) الظلال ج ٣ ص ١٧٧٤ .

## الثانية الرابعة

وتلك الثانية ترتبط بالثانية الأولى .

﴿ وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها .. وبث فيها من كل دابة ﴾

ثمة مشهد طبيعي رائع الجمال .. جاء مجملاً كعادة الآية في سورة البقرة .. ونظرة إلى المشهد نرى أبعاده وجوانبه الطبيعية .. فالأرض جافة ، تشققت ، وتصدعت قشرتها ، وانفتحت أرجاؤها .. منظر الجفاف الذي يلوى القلوب ويعصر الأفئدة . منظر تراه العين فيبدو في بؤرة الإدراك لوحة ميتة رمادية اللون تكتنفها أخاديد بطولها .. وفي زوايا السطوح بقايا حياة ملفوظة .. ثم ينهل المطر من السماء ، سلوكاً فضية مترعة بالحياة والنمو .. فتتلقاها الأرض العطش .. وترتسم لوحة جديدة .. هذا الماء المنسكب امتصته مسام الأرض .. فالتأمت الأخاديد .. وانضمت الأرض على نفسها ، ريثاً وحياة . فزهت وأثمرت .. ومشت على بساط اللوحة الفراشات ، والأنعام ، والإنسان .. في لوحة زاهية بالجمال والمتعة .. ولا يفوتنا تلك الحركة البطيئة .. حركة النمو .. وكذلك حركة المطر العنيفة .. حركة الإحياء .. والآيات في هذا المجال كثيرة .. وهي ترد في كثير منها لبيان أوجه التوحيد ..

قال تعالى :

﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماءً ، فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خصباً نُخرج منه حبا متراكباً ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان ، مُشْتَبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه . إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾<sup>(١٩)</sup>

(١٩) الانعام ٩٩ .

الماء .. الذى ينهل من السماء .. جالباً الخير والنعاء .. كثيراً ما يرتبط بالأرض فى تحولها من هود ديباب إلى حيوية وخصوبة .. وضرب القرآن بهذه الصورة أمثلة عديدة تدور حول الحياة والموت ، والبعث والنشور ، ويقين الوجدانية ، وخداع المظهر ، وسراب العمل الضال .. وجمال الزينة ، وروعة البهاء .. وغيره كثير .. والمشهد عامراً بالحيوية ناطق بالحركة ... فثمة سحب متراكم يخرج منه الودق والرعد .. ثم تنهل الأمطار حاملة النماء والزهو .. والبهجة .. تلك الخيوط المائية هى علاقات حياة تربط بين السماء والأرض فى جدلية دائمة .. مقدرة بفعل القادر المبدع ... هذا هو جانب من الصورة .

ومساحة اللوحة عريضة ، الأرض التى خرج منها بإذن الله مالد فطاب .. وأمتع فأسعد . النباتات على اختلاف أنواعها والفواكه والثمار والحبوب والشجر .. قماشة خضراء مطرزة بالأشكال والألوان .

قال الطبرى : أخرجنا به ما ينبت به كل شئ وينمو عليه ويصلح . وتتلون لوحة الطبيعة بتلك النباتات الخضراء الغضة ، الندية فى خضرتها .. ويتساقق ويعلو ويزهو ويشمر .. ويتراكم الحبُّ بعضه فوق بعض ، مترعاً وممتلئاً .. كسنايل القمح الزاهية بلونها الأخضر الذى يتحول إلى لون ذهبي جميل .. وكذلك الشعير والذرة والأرز .. وكل ما من شأنه تكون الحبوب فيه .

وينشق من المساحة ، النخل مرتفعاً كالسهم .. مشرعاً إلى أعلى ، متألق بتاج من الخضرة ممّوه بعراجين ممتلئة بثمار البلح فى تحول لونه وتعدد شكله .. وتتدلى العراجين دانية تطلب الجنى والقطف .. ولا ينحنى تلك الظلال اللطيفة الأليفة التى تحدد بعضاً من خيوط المشهد .. والثمار - كما يرى الكشف - ( سهلة المجتنى ، معرضة للقطف ، كالشئ الدانى

القريب المتناول<sup>(٢٠)</sup> .

وتتحدد في مساحة اللوحة البساتين والحدائق عامرة بالأعشاب والزيتون والرمان ذوات أشكال وألوان مختلفة .. ما بين الثمر والورق والأغصان والظلال .. قال قتادة : مشتبها ورقه ، مختلفا ثمره ، وفي ذلك دليل قاطع على الصانع المختار العليم القدير .

وليتأمل الإنسان الثما إذ أُنِعت ويضع مناسيبها الجمالية في اللوحة .. وليتابعها من خروجها ابتداءً إلى تحوها وانتهاء نضجها ، وليرى كيف تنتقل من حال إلى حال في اللون والشكل والرائحة والحجم ، وكيف يتحول الطعم من مرارة وملوحة إلى حلاوة طيبة ونداوة طيبة المذاق .. وليتأمل الإنسان هذا الجلال والجمال كله ، ليدرك قدرة الله ووحدانيته ..

يقول الزمخشري : وانظروا إلى حال ينعه ونضجه كيف يعود شيئاً جامعاً لمنافع وملاذ ، نظر اعتبار واستبصار واستدلال على قُدرَةٍ مُقدَّرة ومُدبَّرة وناقلة من حال إلى حال<sup>(٢١)</sup> إن الأداء التصويري المنوع يستعرض أنواعاً من الحياة على مساحة الأرض ، فبلغت الحس إلى القدرة الالهية ، ونسَّق في اللوحة المعجبة بين تعدد التماذج والأشكال في المشهد ، والتعبير على السواء . فالتعبير مثلاً في مفردة «انظروا» له دلالة الجمالية .. (انظروا إلى الثمر إذا أثمر والينع إذا أُنِيع ، انظروا إلى الجمال ، انظروا بعيون مفتوحة وحس مستشرف لتلى الجمال ، انظروا واستمتعوا بالنظر .. ولا يقول كلوا .. لأن المعرض معرض الجمال الميثوث في الطبيعة ، والقدرة القادرة التي تبدع الجمال)<sup>(٢٢)</sup> ..

حقاً إن الذي يدرك هذا الجمال والجلال معاً هم القوم المؤمنون .

(٢٠) الكشف ج ٢ ص ٣١ .

(٢١) المصدر نفسه ص ٣١ .

(٢٢) منهج الفرس في القرآن ص ١٤٧ .



## الثنائية الخامسة .

### ( تصريف الرياح والسحاب المسخر )

وها هي الرياح ، يصرفها الله أنى شاء ، فتتحول من وجهة إلى أخرى ، وهاهو السحاب المتراكم الثقيل والخفيف يملأ سماء الأفق ثقيلًا ، متراكماً ... مسخراً بين السماء والأرض ، خاضعاً للمشئة ، محمولاً على بسائط الريح ، تقوده إلى هنا ، وتدفعه إلى هناك لحكمة مرادة .. ومن ثم يستقر مطراً منهلاً يجلب الخير والثناء ...

تلك لوحة تعتمد على الحركة والجدل ... وتشئ بجمال أخاذ .. ومن لايسعد لرؤية السحاب المتراكم مدفوعاً في كبد السماء بفعل ربح توجهه الوجهة المرادة ، ومن لايسعد ويتلذذ برؤية المطر ينهل في ارتعاشات ضوئية ولونية مصاحبة تئنضح بالجمال ..

والآيات التي تناولت هذا المحور كثيرة .. ولنأخذ نموذجاً ..

قال تعالى : ﴿ الله الذى يرسل الرياح ، فتثير سحابا . فيسقطه فى السماء كيف يشاء . ويجعله كسفاً . فترى الودق يخرج من خلاله . فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون . ﴾ (٢٣)

وقال تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يزجى سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله . وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾ (٢٤)

الآيات سجل حافل للوحات مصورة .. لوحة بعد لوحة فاللوحة الأولى إرسال الرياح .. فالرياح - بفعل الارادة - تقوم ببلورها مسيرة

(٢٣) الروم ٤٨ .

(٢٤) النور ٤٣ .

بالقدرة محملة برسالة ، عليها أن تؤديها كإنسان عاقل .. وانظر إلى الجمال التصويرى فى الطبيعة الذى يبين أن لكل شىء رسالة يحملها ليؤدى دوره فى منظومة الكون الواحدة ...

#### اللوحة الثانية :

حملت الرياح الرسالة حين بعثها الله بها .. فتكونت لوحة أخرى هى إثارة السحاب .. وانظر إلى الصورة تثير سحاباً .... إنها تحركه من ثبات ، وتسوقه أمامها ، وتدفعه فى اتجاهات محسوبة ... إنها تحرسه وتدفعه بحساب . ثم تبدأ فى بسطه .. ويته فى الجو خفيفاً أو كثيفاً مطبقاً أو غير مطبق .. ثم يتشكل بفعل الدفع والحركة قطعاً كثيفة متراكمة ، يصطدم بعضها مع البعض ... تلك حركة مشهودة للعيان .. حركة الريح مرسله بالمشيئة وحركة السحاب مبخراً ومكثفاً ومتراكماً .. ويصحب الحركة تنوعات فى الشكل واللون والحيز .... فما أبدع الخالق !!!

#### اللوحة الثالثة :

وتصل الحركة فى تدافعها وتصادمها إلى خروج الماء وسقوط المطر من خلال السحاب . وتتضخم قطرات المياه وتتواصل فى شكل مطر منهمر . وإذا اشتدت البرودة تشكلت قطرات المياه ، تشكيلات جديدة ، وتبدو فى شكل البرد الأبيض ، يتكاثف بعضه فوق بعض فيبدو ضخماً هائلاً جليلاً كالجبال الراسيات .. ولاشك أن اللون الأبيض يعطى للوحة صفاء ونقاءً وجمالاً آسراً ...

ولنتنقل إلى صورة متخيلة للسحب المتراكمة الثقيلة .. فإذا ماركبنا طائرة واخترقت السحاب عالياً .. بدت السحب كالجبال ضخامة وثباتاً .. ( فإذا المشهد ، مشهد الجبال حقاً ، بضخامتها ، ومساقطها ، وارتفاعاتها وانخفاضاتها . وإنه لتعبير مصور للحقيقة التى لم يرها الناس إلا بعد ما ركبوا

الطائرات) (٢٥) ويصيب ذلك كله - الماء ، والبرد - من يشاء الله من عباده . أو يصرفه ويدفعه عمن يشاء .

قال الصاوى : كما ينزل المطر من السماء وهو نفع للعباد كذلك ينزل منها البرد وهو ضرر للعباد . فسبحان من جعل السماء منشأ للخير والشر (٢٦)

#### اللوحة الرابعة

وهى لوحة تتناول الومضات الضوئية فى سجال نورانى متدفق . فالسحاب المتراكم المتصادم ، والمتدافع ، مشحون كهربائيا ، وحين تلتقى الثنائية ، السالب والموجب ، ينشأ هذا الوميض الخاطف ، البرق ، فيتبدى سلوكا ضوئية منفجرة تكاد من قوتها أن تحطف أبصار الناظرين .. ويليه هذا الدوى الهائل الذى هو الرعد .. صوت هائل يصك المسامع وينبىء عن تلاقح كهربى ..

اللوحة أرضيتها تراكم فى الغيم ، فيه كثافة وظلمة من جهة ، وفيه خفة ورمادية من جهة ... ثم تأتى الحركة فتدفع وتضطرم ، فتسجل الحركة على أرضية اللوحة .. هذا البرد الخاطف المتعرج كسلوك من الفضة .. ثم يضاف إلى اللوحة المصورة الصوت الذى يكشف سر هذا التدافع .. وهى كلها موافقات ذات مناسيب محددة تكشف سر التدبير الدقيق الذى يشئ بالقصد والاعتدال ، كما يشئ بوحدة التصميم ورحمة التدبير ..

وَلَوْ ألقى الإنسان عن عقله الغفلة واستقبل المشهد المصور بحس متجدد وقلب منور بالإيمان لأصبحت كل نظرة ، وكل حركة لفئة متجددة إلى إدراك الجمال والجلال فى تناسقه وكماله ( إن الإيمان رؤية جديدة للكون ، وإدراك جديد للجمال ، وحياة على الأرض فى مهرجان من صنع الله ) (٢٧)

(٢٥) الظلال ج ٤ ص ٢٥٢٢ (٢٦) صفوة التفاسير ج ٢ ص ٣٤٣ (٢٧) الظلال ج ١ ص ١٥٣ .

## الفصل الثامن

### الأداء التصويري في مشاهد القيامة

## الأداء التصويرى فى مشاهد القيامة

لقد عنى القرآن الكريم بمشاهد القيامة عناية أخذت جانباً كبيراً من السور القرآنية ، حيث البعث والحساب . والنعيم والعذاب ، والرد على إنكار المنكرين ، فى نسق تعبيرى مصور يحيل الأمر الذهنى إلى مشهد حى متحرك ..

ولقد وردت مشاهد القيامة فى إطار سردى بالغ الدقة فى الوصف والتصوير . وهى تجسّد المستقبل المغيّب فى نسق مصور ، نحس فيه ونحن نقرأ وتلقى بالصورة الحركة والإيقاع والحياة المتلاطمة وتعنى مشاهد القيامة بتصوير الهول فى ذلك اليوم .. وهو هول عام شامل لا يفوت منه شىء ، الكون كله بما فيه ومن فيه . حتى تبدو كل المفردات حيّة شاخصة يدب فيها نوع من الحياة . وهذه المفردات التى تكون المشهد الحى .. قد تكون مفردات طبيعية .. الشمس والنجوم والجبال .. وقد تكون نفوساً بشرية .. تنتظر جزاءً أو حساباً .. والكل فى الهول خائف ومرتعب . وثمة سمة تجمع بين مشاهد القيامة وهى أنها مشاهد حيّة ، منتزعة من عالم الأحياء .. مقياسها هو المشاعر والخواطر والانفعالات ... وتتحدد صورة هذه المشاهد مرسومة فى أداء معجز وفى تفاعل يقينى فى النفوس البشرية ، أو فى مفردات الطبيعة وقد شخّصت وحُلّعت عليها ثوب الحياة وإذا كانت صور الحياة فى جمالها وزينتها ، وتنوعها فى أنساقها المختلفة صوراً مجسدة فى القرآن بطريقة يُسَدّل منها - فضلاً عن الأداء الفنى المعجز - على البعث والنشور ، والجزاء والعقاب .. وتصوير الأعمال الصالحة ، أو الباطلة .. وبيان آلاء الله فى الكون والإنسان ، فإن مشاهد القيامة ، هى الأخرى حياة حاضر تملأها العين ، وتحسها النفس ، ويُقبض عليها الإدراك العقلى المؤمن ، وتتفاعل معها شتى المشاعر والوجدانات . إنها المشاهد

الحاضرة الغائبة إن صح التعبير ... ومشاهد القيامة مصوّرة في جمال متناسق يتجلى في مفردات المشهد وجزئياته . فترد تلك المفردات مجدولة في نسق تعبيرى معجز ، من حيث التماثل والتضاد ، والتجسيم والتشخيص ، والحركة والفعل مصحوبة بدلالات الألفاظ وجرسها ، وجمال المجاز والتخييل ، وظلالات الألوان وتنوعها ، وصدى الأصوات وترددها ، مما يعطى للمشهد إيقاعه واتساقه .

ومعلوم أن مشاهد القيامة مرتبطة بالهدف الدينى .. فلقد أنكر العرب البعث إنكاراً تاماً ، ولم يطاوعهم عقلهم القاصر على إدراك هذه القضية التوحيدية الكبرى .. وظل السؤال معلقاً في أذهانهم ، مُصاغاً صياغة قرآنية معجزة تكشف عن هذا الجانب الإنكارى .

قال تعالى : ﴿ أَفَلَا مَتَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتُمْ لِمُبْعَثُونَ . أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ . ﴾<sup>(١)</sup>

وهذا الاستفهام الإنكارى يعكس لنا طبيعة القوم وصدهم عن الدين ، وإنكارهم للبعث .. متصورين - انطلاقاً من منطق وثنى مادية - أن الحياة حين تنتهى لن تعود .. فلا بعث ولا قيامه . وهذا الإنكار جَوِّه به كل رسول حمل رسالة التوحيد ومن ثم يصبح الغرض الدينى وراء هذا التصوير المبدع لمشاهد القيامة . هو المعنى البارز ، والدلالة العميقة ، والمنهج المؤصل فى قضية البعث .

(ومشاهد القيامة فى القرآن كلها مسوقة لأداء الغرض الدينى ذلك الغرض الأول للقرآن . ولكنها تتصل بالوجدان الدينى عن طريق الوجدان الفنى)<sup>(٢)</sup> وإذا كان الموضوع دينياً فإنه ذو دلالات فكرية وخلقية وجمالية .

(١) الواقعة ٤٧ - ٤٨ .

(٢) مشاهد القيامة فى القرآن ص ٤٧ سيد قطب .

فالحياة الدنيا متصلة اتصالاً وثيقاً بالآخرة بحيث تصبح الحياة الآخرة امتداداً للحياة الدنيا ، وهذا الاتصال مصور بطريقة مجسدة . وإذا كان القرآن يرسم صوراً حسية للنعيم فلذلك لأن الانسان ( في الآخرة هو انسان هذه الدنيا ، منظوراً في صورته النهائية التي اكتسبها من التجربة .. وبهذا تصبح الآخرة هي اكتمال الحياة الدنيا .. وأن الذي سيتلقى النعيم أو يذوق العذاب ليس شخصاً آخر منقطعاً .. وإنما هو ذاته في صورته النهائية التي تطور إليها نتيجة مسلكة في أثناء تجربة الحياة )<sup>(٣)</sup>

ولنأخذ نموذجاً من مشاهد يوم القيامة ، نموذجاً لمشهد تتحرك فيه جزئياته شخصاً حياً .. ما بين طبيعة ساكنة صامتة ، وبين حيوان أعجم ، وبين انسان واع ومدرک ..

قال تعالى :

﴿ إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت . وإذا الجبال سُيِّرَت . وإذا العُشَارُ غُطِّلَت . وإذا الوحوش حُشِرَت . وإذا البحار سُجِّرَت . وإذا النفوس رُؤِجَت . وإذا الموءودة سُئِلَت . بأى ذَلْبٍ قُتِلَت . وإذا الصُّحُفُ نُشِرَت . وإذا السماء كُشِطَت . وإذا الجحيم سُقِرَت . وإذا الجنة أزلَّت . عَلِمَت نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ . ﴾<sup>(٤)</sup>

الآيات الكريمة تتحدث عن يوم القيامة .. وما يصاحبه من تحول رهيب يمس مفردات الكون من الشمس حتى الانسان .. ولعلنا نلاحظ أن ثمة إيقاعاً يشمل الآيات ممثلاً في الحركة العنيفة التي تحتاج كل شيء .. وتثير كل شيء ، فتطمس الأنوار ، وتتلاشى الثوابت ، وتنفجر البحار بالنار .. ويحل الروع محل الأمن ، والصخب المرعب محل السكون ..

(٣) منهج الفن الإسلامي ص ١٧٤ .

(٤) التكويد ١ - ١٤ .

ويتبدى الانسان في حالة من الخوف تهرز القلب وتنفضه .. فاهول عاصف جارف ، ولا ملاذ فيه إلا رحمة الله .. إنه انقلاب كوني .. مشهود ، مصوغ في ثراء دلالي ، وإعجاز تعبيرى ، وإيجاز مَوْقِع إيقاع وصور وظلال ، ومشاهد ... تتناغم لتصور هذا الانقلاب يوم القيامة .

وفي تلك الحركة الجائحة والثورة الشاملة ينكشف المستور ، ويتبهاً الموقف لبيان الجزاء والعقاب ، الجنة أو النار . والملاحظ على الآيات الإيقاع السريع في متواليات المشهد .. فالشمس ينحسر ضوءها ، وتطوى حرارتها .. وتُلف كما تلف العمامة ، ويطوى كل ما فيها من قوة وجرم وضوء .. وتصبح جرماً مطموساً منطفئاً بارداً . ومنظومة النجوم الهية في توازنها ، تتساقط وتتناثر ، وتفصل حبات المنظومة ، والضوء ينسحب منها ويتلاشى . ويشيع الظلام ... فلاضوء من الشمس ولا نور من النجوم .. ولا ثبات لشيء .. والجبال الرواسي الشامخات الثابتات ... تتحرك من أماكنها حركة عنيفة وتتطاير في الهواء كالهباء .. خفيفة هشة سريعة .. فاهول قابض على الكون ، والانفجار طال كل شيء .. حتى النوق العشار الساكنة التي هي عند أصحابها كالكنز لا يفرط فيه ، تركت هماً بلا راع ولا طالب .. لقد أضحت لا قيمة لها .. وكيف يهتم الناس والهول بقصص على الكون ، والكل مشغول بنفسه !! فالرجفة زلزال قلب الموازين .. ومامن أحد يقف ليهم بشيء ... وهاهى الوحوش الكاسرة هالها الرعب والهول فحشرت وانزوت تتجمع ، ونسيت مخاوفها ، كما نسيت فرائسها .. ومضت هائمة لا تأوى إلى جحر ، ولا تنظر إلى عشار مهمة ، فلقد نسيت في ظلال الهول خصائصها المتوحشة وسعت إلى ملاذ .. وهى الضَّارية .. والبحار هاجت وماجت وتفجرت مياهها ناراً .. تطول كل شيء كالنتور



المسجون الملىء بالخطب ، المشتعل بالنار<sup>(٥)</sup> .. إن الإدراك البشرى ليعجز عن تصور هذه البحار المسجورة .. وهاهى النفوس تتجمع كتجمع الوحوش رغبة في الملاذ .. الزلزال عنيف ، والرجفة شاملة ، والأرواح تجسدت في أشكالها ، وانضمت كل جماعة في رباط متشابه ... فالفاجر مع الفاجر والصالح مع الصالح<sup>(٦)</sup> ... والكل يبدو في تشكيل متجانس مرعوب بهول الموقف . والموعودة التى هانت على الناس فى الجاهلية فدفنوها حية ، خوف العار والفقر ، الموعودة التى تدفع دفعاً إلى البئر ويهاى عليها التراب بلا رحمة أو شفقة ، الموعودة التى قتلت فى صمت دون ذنب أو جريرة ، تبعث لتسأل ، أى ذنب ارتكبت حتى قتلت : تسأل عمن وأدها .. ولا مجيب ، وكيف يجب القتلة ! وهم فى شغل بأنفسهم وبالهول حولهم ! إنه سؤال فيه تبكيت وتوبيخ للقتلة<sup>(٧)</sup> .

ثم يتجلى المستور والمجهول .. فإذا الصحف تنشر بعد طيها ، تعلن عن المستور فتفضحه فيصبح أنكى وأشد على النفس . وهو نشر يتساق مع حركة التحول الكونية ، وهو لون من ألوان الهول النفسى . فصحف الأعمال تطوى عند الموت وتنشر مبسوطة عند البعث ، مقروءة مكشوفة<sup>(٨)</sup> .. فلقد

---

(٥) يقول الزمخشري : سجر التنور إذا ملأه بالخطب أي ملئت وفجر بعضها إلى بعض حتى تعود بحراً واحداً . الكشف ج٤ ص ١٨٨ .

(٦) قال الطبري : يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح فى الجنة ، وبين الرجل السوء مع الرجل السوء فى النار .

(٧) بكى الله الكافر ببراءة الموعودة من الذنب . وفيه دليل على أن الأطفال المشركين لا يعذبون . الزمخشري ويرى سيد قطب أن الإسلام جاء ينهى عن الوأد ويغلظ فعلته ، ويجعلها موضوعاً من موضوعات القيامة ...

(٨) قال ﷺ (يحشر الناس عراة حفاة . فقالت أم سلمة : كيف بالنساء . فقال : شغل الناس يألم سلمة وقالت : وما شغلهم . قال : نشر الصحف ، فيها مثاقيل الدر ومثاقيل الخردل : الكشف) .

جاء وقت الحساب ..

والسما - هذا السقف المرفوع - أزيلت ونزعت من مكانها كما ينزع الجلد عن الشاة . السماء التي كانت حجاباً وستاراً كشطت فلاستر ولاخفاء ، وظهر المجهول في الآفاق . لينضم إلى فرائد الهول في عقده غير المنظوم .

والجنحيم امتلأت بالوقود واشتعلت فيها النيران وتأججت باللهب ، وماجت الحرارة في جوفها وخارجها .. فتحت أرجاءها لتلقف ما وعدت به من وقود .. الناس والحجارة ، والكل ينصهر ويحترق في هذا الأتون الهائل .. والجنة تتبدى شيئاً فشيئاً في جمال وروعة وفتنة . وتظهر للموعودين بها ، إنها تدنو مهياً مداخلها ، لتستقبل المستأنسين بها والمنعمين بما فيها ..

في هذا اليوم الذي حدث فيه انقلاب في كيان الكون ، وفي أحوال الأحياء والأشياء .. في هذا اليوم تعلم كل نفس مالها وما عليها .. وقد تغير كل شيء ، وانفصلت عن كل ماهو مألوف .. إنها في هذا اليوم تعلم كل نفس ما قدمت من عمل صالح أو طالح ( يوم تجد كل نفس نفس ما عملت من خير محضراً ) ( هذا هو مشهد الانقلاب التام لكل معهود ، والثورة الشاملة لكل موجود الانقلاب الذي يشمل الأجرام السماوية والأرضية ، والوحوش النافرة والأنعام الأليفة ، ونفوس البشر .. حيث ينكشف كل مستور ، ويعلم كل مجهول وتقف النفس أمام ما أحضرت من الرصيد والزاد في موقف الفصل والحساب وكل شيء من حولها عاصف .. )<sup>(٩)</sup>

إن المشهد تصوير حتى ليوم القيامة مرسوم في لوحة موقعة

(٩) الظلال ج٦ ص ٣٨٣٧ .

بالحركة .. والصوت واللون والظلال .. فالحركة عنيفة تطيح بكل شيء .. الشمس المكورة ، والنجوم المنكدره والجبال المسيرة . البحار المسجورة . وهى اندفاع للتجمع لاتقاء الهول .. « الوحوش حشرت ، النفوس زوجت » وهى حركة متسائلة مندهشة فى تعجب وتبكيث ، « العشار عطلت » . « الموءودة سئلت » وهى حركة البسط والنشر وكشف المجهول .. « الصحف المنشورة » ، « السماء المكشوفة » .. إن إيقاع الحركة فى تعدد درجاتها ملمح جمالى تضمن المشهد كله .. ويأتى الصوت مصاحباً للحركة فثمة انفجار صاحب يرعد ، يملأ الآفاق ويصك المسامع .. وينداح اللون ليجسد حركة الأشياء فى المكان .. فثمة نيران ملتهبة ، وثمة ظلام دامس وانطماس لضوء الشمس ونور الكواكب .. وتأخذ الجنة والنار حيزاً فى مساحة اللون ، الجنة بجملها وظلالها وبخيراتنا المترعة تتبدى فى حركة بشر وفرح ... أبوابها تفتتح عن جمال رائق وفننة معقودة .. والنار تتميز غضبا بنيرانها الحارقة وظلال الدخان ، وزفيرها المتأجج .. وأسفل اللوحة ، توجد النفوس مبثوثة ، هائمة ، مذهولة ، فى انتظار الحساب .. ثم يتجلى الحق .. والحق يتجلى فى مفردات اللوحة . نلاحظ ذلك من دلالة الفعل المبني للمجهول .. حيث يفيد إسناد الفاعلية لله سبحانه .. ويتفرق على مساحة اللوحة إيقاعات الفواصل فى نغم منساب يعكس الحالة ويصور التغير والانقلاب ..

يقول الرافعى « الفواصل صورة للأبعاد التى تنتهى بها جمل الموسيقى ، وهى متفقة مع آياتها فى قرار الصوت اتفاقاً عجيباً ، يلامم الصوت والوجه الذى يُساق إليه ... وهذه هى طريقة الاستهواء الصوتى فى اللغة وأثرها طبيعى فى كل نفس ... »<sup>(١٠)</sup>

(١٠) القرآن المعجزة الكبرى ص ٣٠٣ .

ومن ثم فإن تكرار التاء مصاحبا لصوت الجملة ، ومناسبا للحركة الكامنة ، وهو حرف قوى يستتبع صوتا صَفِيرِيًّا يغلف الإيقاع كله .

وثمة مشاهد للقيامة تتناول الهول النفسى فى ذلك اليوم .. ولنأخذ نموذجا ورد فى سورة عبس :

قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ . يَوْمَ يَفِرُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمُّهُ وَأُيُّهُ . وَصَاحِبَتُهُ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يَغْنِيهِ . وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفَرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ . وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ . أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ (١١)

سورة « عبس » من السور المكية ، التى تتناول شؤون العقيدة ، ومن أصول العقيدة التأكيد على الإيمان باليوم الآخر .. ومن ثم فقد جاءت الآيات الأخيرة من السورة لتصف لنا أهوال هذا اليوم .. وأحوال المؤمنين والكافرين ، والهول فى هذه الآيات هول نفسى لأنه داخل فى وجدانات البشر فى أحص مشاعره المرتبطة بأهله .

ولعلنا لاحظنا الدوى الهائل والحركة الجائحة والصوت الراعب فى آيات « التكوير » بتنويعاته ... وهنا يأتي اللفظ ( صَاخَّة ) عاماً ، كأنما يختزل هذا الدوى السابق . فاللفظ له جرسه العنيف ، وله نفاذه العميق ، ومن شدته يكاد يخرق الأذن ، وينفض القلب ، والصاخة .. جاءت على الفاعلية لدوام الصوت وإلحاحه واستمراره ، وشموله الكون كله ..

تلك هى الصيحة الهادرة التى تصخ الآذان ، وتنخلع لهولها القلوب .. وينطلق الناس حيارى ، خائفين مرعوبين ، حتى يهرب الانسان ناجيا بنفسه من أحبابه وخلصائه الذين ارتبط بهم فئمة مشهد يملأ بالذعر

---

(١١) عبس ٣٣ — ٤٢ .

وينضح على المساحة كلها .. مشهد المرء وهو يفر من الهول من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه .. لقد جاءت الصاخة فشرخت كل الروابط وشقتها شقاً ..

جاء في التسهيل : ذكر تعالى فرار الانسان من أحبابه ، ورثبهم على مراتبهم في الحنو والشفقة ، فبدأ بالأقل وختم بالأكثر ، لأن الانسان أشد شفقة على بنيه من كل ماتقدم<sup>(١٢)</sup> ... إن الهول يستبد بالنفس ويفصلها عما يحيط بها حتى أقرب الأقرباء إليها .. فكل امرئ عنده مايشغله من الرعب والخوف والهلم القائم ، فلا يفكر إلا في نفسه وينحصر همه في ذاته ، ويعلو صوته هارباً مستغيثاً نفسى ، نفسى ..

هذا حال القوم في هذا اليوم العصيب ..

ثم تتلون اللوحة بظلال نفسية ، تعكس الحال وتكشف الخلق . فثمة خلق سعيد تشع وجوههم نوراً وسعادة ، يتألقون بالفرح والبشر تنعقد قلوبهم على الرجاء في رحمة الله ، وتطمئن قلوبهم باستشعارها الرضى الإلهى .. إنهم قوم آمنوا بربهم ، فعرفوا مصيرهم فأشرقوا بالسعادة ، واستبشروا أملاً زاهياً يخرجهم من هذا الهول ، ويقربهم من النعيم الدائم . فها هي الجنة قد أزلفت إليهم .. وفتحت أبوابها ..

وثمة خلق آخر يعلوه الخوف والرعب من المصير القاسى ، تنضح وجوههم بتعاسة لاحد لها ، وتعلو وجوههم غيرة الحزن على ما هم فيه ، وقتامة الحسرة على ما فرطوا فيه . لقد غشبيهم الذل ، والسواد ، والانقباض ، فتيقنت من مصيرها .. إنهم الكفرة الفجرة .. وتلك الوجوه السوداء الشائثة لدليل على أنهم جمعوا بين خستين .. الكفر والفجور .. وإنهم يخافون من الجحيم .. « وإذا الجحيم سعرت » .

(١٢) صفوة التفسير جـ ٣ ٥٢١ . ويرى الزمخشري : وقيل يفر منهم حذراً من مطالبهم بالتبعات .

وانظر إلى الألفاظ التي وشت بظلال المعاني وساهمت في تلوين اللوحة وتشكيلها . فالوجوه مسفرة : فمفردة مسفرة ، تشع بالنور والضياء والتألؤ .. وهى صفة تلازم الصبح .. وتحيل الوجوه تعكس جمال الصباح الندى بنوره الفجرى البهيج ... وانظر إلى مفردة غبرة وفترة التي تصف وجوه الكافرين : لترى وجه لتقابل فى اللوحة . فهنا ظلال معتمة تطمس الوجوه ، وتشوهها ، فتبدو قبيحة قميئة منقرّة .<sup>(١٣)</sup>

ثم لننظر إلى التقابل الجميل ، الذى يوضح الدلالة ويكشف الحالة .. « فضاحكة مستبشرة » ، تصف حال المؤمنين المطمئنين ، المستبشرين .. فرح ، وسعادة ، وألق ، وانطلاق ، وأمل ، وحياة طيبة .. و ( ترهقها فترة ) تصف حال الكفرة الفجرة ، وتصف قوة الهول النفسى الذى يقبض على النفوس ، وتعكس الوجوه ذلك الهول ، انقباضا ، وحزنا ، وألما شديداً ... لقد ارتسمت ملامح وسمات الوجوه بين هؤلاء وهؤلاء من خلال الألفاظ الدالة ، مما تبدى فيه الوجوه فى مساحة اللوحة كأنها شاخصة مشخّصة ..

وفى الهول النفسى والذهول ماورد أيضا فى سورة القلم .  
قال تعالى : ﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون . خاشعاً أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون . ﴾<sup>(١٤)</sup>

الهول يطيح بكل شئ ويعصف بالنفوس ، إنه يوم القيامة الذى يشمر فيه عن الساعد ، ويكشف فيه عن الساق ، دلالة عما يأخذهم من كرب وشدة . إن هؤلاء الكفرة يدعون إلى السجود تبكيئا وتوييخا فلا يستطيعون ،

(١٣) فترة : سواء كالدخان . ولا ترى أوحش (أقبح) من اجتماع الغبرة والسواد فى الوجه — الكشف . ٤٤ .

(١٤) القلم ٤٢ — ٤٣ . ...

لقد تصلبت ظهورهم وأصبحت كالفقار الواحدة . لقد فات الأوان ، والهول الشديد بكربه وشِدَّتِه يُعجزهم عن الحركة .. لقد بدوا في هذا المشهد أذلاء ، خاشعين شوع الذلة ، لا يقوون على رفع الرعوس ، من شدة الذلة التي غشيتهم .

إن الظلال النفسية التي ينضح بها المشهد ترسم لنا حالة الذلة التي تحيق بالكافرين وتصور الذلة في صورة ثقيلة ضاغطة تجذب الرعوس ، وتلون الوجوه ، وتبتهت العيون ، وتشكل الصورة البشرية في شكل إنسان مسحوق بضواغط نفسية ، يستحقها . كما أن التوبيخ<sup>(١٥)</sup> يليق بهؤلاء .. ذلك أنه في موقف الحياة دُعوا إلى السجود إلى الله وهم القادرون فأبوا ، والآن يطلب منهم السجود من باب التبكي والإمعان في الإذلال .

ولنأخذ نموذجاً آخر فيه نوع من التفصيل ، والتنويع ، والسكون الجليل .

قال تعالى : ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا ما شاء الله . ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . وأشرقت الأرض بنور ربها ، ووضع الكتاب ، وجرى بالنبیین والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون . ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون . ﴾

﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فُتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رُسُل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا . قالوا بلى ولكن حَقَّتْ كلمة العذاب على

(١٥) قال الإمام الفخر في التفسير الكبير : لا يدعون إلى السجود تعبدًا وتكليفًا ولكن توبيخًا وتعنيفًا على تركهم السجود في الدنيا .. فتزداد حسرتهم وندامتهم على ما فرطوا فيه .. وهم سالو الأطراف والمفاصل : صفوة التفاسير جـ ٣ .

الكافرين . قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين . ﴿١٦﴾

﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفُتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض ننبأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين . ﴾

﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾<sup>(١٦)</sup>

المشهد الذى أماننا طويل وممتد ، يعرض عرضاً سردياً ويتضمن الشكل القصصى فى إطاره العام الخارجى .. ويكتنفه حوار يكشف عن طبيعة الجماعة ونوعيتها ، ويتخلله وصف لجزئيات الصورة الوصفية القصصية ... يبدأ المشهد بالحركة الأولى من متواليات الحركة العامة .

فثمة نفخة فى الصور ، قام بأدائها اسرافيل عليه السلام .. نفخة قوية صاعقة ، تصعق فى لحظة كل الأحياء من أهل السموات والأرض ، نفخة تذكرنا بالصواعق الطبيعية ، ذات الشحنات الكهربائية العالية ... فتحيل ماتمسه مواتاً .. إنها لحظة زمنية صاعقة تحمل شحنة الموت فى سرعة قاتلة .. ويخر كل من فى السماوات والأرض .. وينتهى كل شئ إلا من أَراد الله ، كحملة عرشه .. ثم يعم السكون ، ويتسبّد الموت مساحة المشهد اللانهاية .. وتذوب الحركة الأولى فى مسام الموت وتتلأشى ويخيم على ساحة العرض جلال الصمت . ثم تعود الحركة من جديد إلى دويها المفزع .. تعلو وتشد ، ولكن النفخة هنا تتضاد مع النفخة الأولى إنها نفخة



الإحياء .. صيحة البعث والنشور .. ولقد أفاد حرف العطف « ثم » التراخي الزمنى الطويل .. ما بين الموت والإحياء ... وبعد النفخة فإذا الخلائق الأموات يقومون من قبورهم ينظرون .. يقبلون أنظارهم فى الجهات المحيطة ، نظر المبهوتين إذا فاجأه خطب<sup>(١٧)</sup> . إنهم يبدون فى قيامهم وقوفا فى مكانهم جامدين من الخيرة التى تعترى الخلائق .

ثم تضىء أرض المحشر بنور الله يوم القيامة ، حين يتجلى الحق للقصاء بين العباد . هاهى أرض الساحة ، يتم فيها استعراض من العباد . والنور الإلهى يغمر المكان .. إن الحق والعدل والميزان قبسات من نور الله ، تضىء على المساحة جمالاً وروعة .. ولعلنا نلاحظ روعة الأداء التصويرى فى الآية « وأشرقت الأرض بنور ربها » فالأشراق فضلاً على أنه يوحى بالانبثاق النورانى ، إلا أن المفردة تحمل قدراً كبيراً من الفرحة والامتلاء .. وكأنما الأرض ترفل فى نور يتجلى ، وإحساسها بالفرحة مكتمل .. وكيف لا تمتلئ بالإحساس ؟! وجاء التركيب اللغوى عن طريق الإضافة تشريفاً وتكريماً .

( وإضافة اسمه إلى الأرض لأنه يزينا حيث ينشر فيها عدله ، وينصب فيها موازين قسطه ، ويحكم بالحق بين أهلها ، ولا ترى أزين للبقاء من العدل ولا أعمر لها منه ، وفى هذه الإضافة أن ربها وخالقها هو الذى يعدل فيها<sup>(١٨)</sup> )

ثم أخصرت صحائف أعمال العباد للحساب ، وجيء بالنبيين والشهداء ليقولوا كلمة الحق التى يعلمون ، وقضى بين العباد جميعاً بالقسط والعدل ، لا يظلمون شيئاً من أعمالهم لا بنقص ثوباً ولا بزيادة عقاب ، وجوزى كل انسان بما عمل من خير أو شر ، والله تعالى أعلم بما عمل

(١٧) الكشف ج ٣ ٣٥٧ .

(١٨) الكشف ٣٥٧ . وكما فتح الآية بإثبات العدل ختمها بنفى الظلم .

العباد . ( فلا حاجة إلى كلمة واحدة تقال ، ولا إلى صوت واحد يرتفع ، وهكذا تُحمَلُ هنا عملية الحساب والجزاء ، لأن المقام هنا مقام روعة وجلال<sup>(١٩)</sup> ... لقد طوى كل خصام وجدال في هذا المشهد تنسيقاً لجوه مع الجلال والخشوع الذى يسود الموقف العام<sup>(٢٠)</sup> )

ونأتى إلى التشكيل الثانى للوحة .

إنه التشكيل التابع للحركة الثانية حركة الإحياء والبعث ووَضْع الكتاب ومن ثم تصنيف العباد . فالصنف الأول هم الكفرة المجرمون ، الذين يُساقون إلى جهنم جماعات جماعات .. كما يساق القطيع ، ولنلاحظ هذا الملمع الجمالى فى حركة الدَّفْع .. ولنستدع بالخيال صورة القطيع يهشه الراعى بعصاه ويدفعه دفعاً إلى مبتغاه .. والقطيع فى الحيوان يقوده ، حيوان من جنسه يتميز بالقوة والجسامة ، والباقي يتبعونه فى خطاه .. والراعى يللمم القطيع ويحدد اتجاهه .. تلك صورة متخيلة .. تفرض التجسيم الحسى .. وتوحى بافتقاد الفعل وضياح الرشد .. فهؤلاء الكفرة حين ألغوا العقل ، واتبعوا قادة الكفر ولم يستمعوا لنداء الحق يشبهون فى حركتهم ، صورة القطيع .. ومن ثم يحدث التبرؤ الذى ذكرته الآيات فى سور أخرى .. تبرؤ الذين اتَّبَعُوا من الذين اتَّبَعُوا .. هذا القطيع وقد عرف مصيره وعقابه ، يذهب إلى مثواه الأخير حيث تفتتح أبواب جهنم لتستقبلهم .. وهناك يسجل خزنة النار استحقاق الكفرة للنار . كما يذكرهم بما جاء بهم إليها .. وفى حوار يدور بين قادر ومُذْعِن مستسلم .. ويكشف الحوار عن طبيعة الكفرة ونوعية السَّمات التى ارتسكوا فيها .. يقول الخزنة وقد رأوا جماعات الكفر تتوالى ، فى تساؤل يتسم بالتفريع والتوبيخ ..

(١٩) مشاهد القيامة فى القرآن ص ١٧٠ .

(٢٠) الظلال ج٥ ٣٠٦٢ .

- ألم يأتكم الرسل يتلون عليكم الكتب ؟  
ويقف القوم جامدين ، ذاهلين ، لا يستطيعون حراكاً ، ويتابع الخزنة  
الحوار ..

- ألم يخوفوكم من شر هذا الموقف العصيب ؟..  
ولا يجد القوم في مثل هذا الموقف المحزى المستسلم ، الدليل إلا أن  
يجيبوا .. قائلين

- بلى .. جاءتنا الرسل ، وتلو علينا ماجاءوا به ، وحذرونا ، وأنذرونا ..  
وأقاموا علينا الحجيح ، ولكننا عاندنا وكذبنا فحق علينا العذاب ..

الإجابة إذعان كامل ... وطبيعة الحوار لا تحتمل الجدل أو المخاصمة ،  
وإنما هو حوار يهدف إلى تسجيل اعتراف الكفرة بجرمهم .. في حالة إذعان  
تتضح بالتسليم ، كما يوضح الدور الذى قام به الرسل واعترف به القوم ،  
وقد كانوا من قبل معاندين .. والحوار في معناه العميق يرسم لنا صورة  
متقابلة بين موقف الكفرة في الحياة وموقفهم بعد البعث .. فيجمع الحوار ما  
بين الماضى البعيد والحاضر المائل في آن واحد حتى يكون الدليل ناصعاً  
دامغاً . وكأن الماضى أثناء الحوار يتردد كالصدى في أرجاء الساحة فيزيدهم  
ذلة وخسة ..

ويأتى الأمر بدخول هؤلاء المتكبرين جهنم خالدين فيها .. ويظل  
صدى كبرهم وعنادهم يتردد ﴿أَلَمْ نَكُنَّا مِنْكُمْ تَرْاباً وَعِظَافاً أَتُنَا لِمَعُونُونَ .  
أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾ (٢١) .. ويصبح اعترافهم إدانة منهم لأنفسهم .

أما موكب المؤمنين الذين اتقوا ربهم فيأتون في تكميم إلى الجنة جماعات  
جماعات ، والفرح يغمرهم ، حتى إذا وصلوا إليها استقبلهم خزنتها بالبشر

والترحاب قائلين في تودد ومحبة : سلام عليكم أيها المتقون لقد طِئِمَ نفْساً وتطهرتم قلوباً ، فاستحققت الجنة ثواباً ، فادخلوها خالدين .. وعلت أصوات المؤمنين ، في شكر وحمد يليق بالمقام : الحمد لله الذى تحقق الوعد بالجنة .. هنا مشهد تكريم ، ومحبة ، وفرح ،.. تتردد في جنباته أصوات رطبة ندية الوجوه نضرة ، والوعد في الماضى البعيد يتحقق ماثلاً .. فما أروع الصدق ! وما أبهج ثماره !

ونقف عند لفظين لهما دلالتهما في الموقفين . اللفظ الأول : ( سبق ) .. فلقد ورد في كلا الموقفين ، ولكن وروده جاء مصحوباً بدلالة مغايرة . ففي الأول : يعنى الطرد والهوان والذلة .. وفي الثانى التكريم والتبجيل .

قال الزمخشري : المراد بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والعنف كما يُفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو طرد . والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم لأنه لا يُذهب بهم إلا راكبين ، وحثها إسراعاً بهم إلى دار الكرامة والرضوان .. فشتان ما بين السوقين (٢٢) اللفظ الثانى : ( طِئِمَ ) :

واللفظ يعنى الطهارة من الدنس .. فبين اللفظ سبب الدخول إلى الجنة حيث إنها دار للطيبين الأطهار ، فهى دار طهرها الله من كل دنس ، وطيبها من كل خبث ، فناسب اللفظ المكان .. وناسبت الصفة الموصوف .

ويأتى ختام المشهد جليلاً ..

إنه يلقى في النفوس الروعة والرهبة والجلال .. وهى صفات تتسق مع المشهد .. ( فالوجود يتجه إلى ربه بالحمد ، في خشوع واستسلام وكلمة

(٢٢) الكشف ج ٣ ص ٣٥٨ .

الحمد ينطق بها كل حي وكل موجود في استسلام ... (٢٣) فالملائكة يحيطون بعرش الرحمن ، محققين به من كل جانب ، يسبحون الله ويمجدونه تلذذاً ، وقُضى بين العباد بالحق ، وحمد الجميع ربهم على فضله وعدله ..

( قال ابن كثير : نطق الكون كله أجمعه الله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله ولهذا لم يسند القول إلى قائل ، بل أطلقه على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد- ) (٢٤)

هذا المشهد الجليل أحد مشاهد القيامة في القرآن الكريم والمشاهد من أوسع أبواب الفن ومن أكثرها وروداً . وهي مادة غنيّة بالتنوع والحركة والجمال النفسى والحسى في إطار من السكون والجلال . مما يمكن معه أن يستقى منها أعمال فنية مترعة بالفن والفكر معا .

---

(٢٣) الظلال ج٥ ص ٣٠٦٣ .

(٢٤) مختصر ابن كثير ج٣ ص ٢٣٣ .

## محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
المقدمة :	٥
الفصل الأول : الأداء التعبيري ودلالة الألفاظ	٧
الفصل الثاني : الترادف والدلالة اللفظية	٢١
الفصل الثالث : الصورة البيانية والأداء التصويري القصصي	٣١
الفصل الرابع : التصوير الفني	٤١
الفصل الخامس : التشخيص وجماليّاته التعبيرية	٦٧
الفصل السادس : التصوير الحسي والتجسيم	٩٣
الفصل السابع : الأداء التصويري في آيات الكون والطبيعة	١١١
الفصل الثامن : الأداء التصويري في مشاهد القيامة	١٣١

# صدر من هذه السلسلة

الدكتور حسن باجودة	١ — تأملات في سورة الفاتحة
الأستاذ أحمد محمد جمال	٢ — الجهاد في الاسلام مراتبه ومطالبه
الأستاذ نذير حمدان	٣ — الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين
الدكتور حسين مؤنس	٤ — الاسلام الفاتح
الدكتور حسان محمد مرزوق	٥ — وسائل مقاومة الغزو الفكري
الدكتور عبد الصبور مرزوق	٦ — السيرة النبوية في القرآن
الدكتور محمد علي جريشة	٧ — التخطيط للدعوة الاسلامية
الدكتور أحمد السيد دراج	٨ — صناعة الكتابة وتطورها في العصور الاسلامية
الأستاذ عبد الله بوقس	٩ — التوعية الشاملة في الحج
الدكتور عباس حسن محمد	١٠ — الفقه الاسلامي آفاقه وتطوره
د. عبد الحميد محمد الهاشمي	١١ — لمحات نفسية في القرآن الكريم
الأستاذ محمد طاهر حكيم	١٢ — السنة في مواجهة الأباطيل
الأستاذ حسين أحمد حسون	١٣ — مولود على الفطرة
الأستاذ محمد علي مختار	١٤ — دور المسجد في الاسلام
الدكتور محمد سالم محيسن	١٥ — تاريخ القرآن الكريم
الأستاذ محمد محمود فرغلي	١٦ — البيئة الادارية في الجاهلية وصدر الاسلام
الدكتور محمد الصادق عفيفي	١٧ — حقوق المرأة في الاسلام
الأستاذ أحمد محمد جمال	١٨ — القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته [١]
الدكتور شعبان محمد اسماعيل	١٩ — القراءات أحكامها ومصادرها
الدكتور عبد الستار السعيد	٢٠ — المعاملات في الشريعة الاسلامية
الدكتور علي محمد العماري	٢١ — الزكاة فلسفتها وأحكامها
الدكتور أبو اليزيد العجمي	٢٢ — حقيقة الانسان بين القرآن وتصور العلوم
الأستاذ سيد عبد المجيد بكر	٢٣ — الاقليات المسلمة في آسيا وأستراليا
الدكتور عدنان محمد وزان	٢٤ — الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر
معالي عبد الحميد حمودة	٢٥ — الاسلام والحركات الهدامة
الدكتور محمد محمود عمارة	٢٦ — تربية النشء في ظل الاسلام
الدكتور محمد شوقي الفنجري	٢٧ — مفهوم ومنهج الاقتصاد الاسلامي
الدكتور حسن ضياء الدين عتر	٢٨ — وحي الله
حسن أحمد عبد الرحمن عابدين	٢٩ — حقوق الانسان وواجباته في القرآن
الأستاذ محمد عمر القصار	٣٠ — المنهج الاسلامي في تعليم العلوم الطبيعية
الأستاذ أحمد محمد جمال	٣١ — القرآن كتاب أحكمت آياته [٢]

- ٦٧- العدل والتسامح الاسلامي ----- الأستاذ احمد المخزنجي
- ٦٨- القرآن كتاب أحكمت آياته [٤] ----- الأستاذ احمد محمد جمال
- ٦٩- الحريات والحقوق الاسلامية ----- محمد رجاء حنفي عبد المتجلي
- ٧٠- الانسان الروح والعقل والنفس ----- الدكتور نبيه عبد الرحمن عثمان
- ٧١- كتاب موقف الجمهوريين من السنة النبوية ----- الدكتور شوقي بشير
- ٧٢- الاسلام وغزو الفضاء ----- الشيخ محمد سويد
- ٧٣- تأملات قرآنية ----- الدكتورة عصمة الدين كركر
- ٧٤- الماسونية سرطان الأمم ----- الأستاذ ابو اسلام احمد عبد الله
- ٧٥- المرأة بين الجاهلية والاسلام ----- الأستاذ سعد صادق محمد
- ٧٦- استخلاف آدم عليه السلام ----- الدكتور علي محمد نصر
- ٧٧- نظرات في قصص القرآن [٢] ----- محمد قطب عبد العال
- ٧٨- لماذا وكيف أسلمت [٢] ----- الشهيد احمد سامي عبد الله
- ٧٩- كيف نُدرِّس القرآن لابنائنا ----- الأستاذ سراج محمد وزان
- ٨٠- الدعوة والدعاة .. مسؤولية وتاريخ ----- الشيخ ابو الحسن الندوي
- ٨١- كيف بدأ الخلق ----- الأستاذ عيسى العربي اوي
- ٨٢- خطوات على طريق الدعوة ----- الأستاذ احمد محمد جمال
- ٨٣- المرأة المسلمة بين نظرتين ----- الأستاذ صالح محمد جمال
- ٨٤- المبادئ الاجتماعية في الاسلام ----- محمد رجاء حنفي عبد المتجلي
- ٨٥- التآمر الصهيوني الصليبي على الاسلام ----- د. ابراهيم حمدان علي
- ٨٦- الحقوق المتقابلة ----- د. عبد الله محمد سعيد
- ٨٧- من حديث القرآن عن الانسان ----- د. علي محمد حسن العماري
- ٨٨- نور من القرآن في طريق الدعوة والدعاة ----- د. محمد الحسين ابو سم
- ٨٩- أسلوب جديد في حرب الاسلام ----- د. محمد الحسين ابو سم
- ٩٠- القضاء في الاسلام ----- د. علي محمد حسن العماري
- ٩١- دولة الباطل في فلسطين ----- د. علي محمد حسن العماري
- ٩٢- المنظور الاسلامي لمشكلة الغذاء وتحديد النسل ----- د. حلمي عبد المنعم جابر
- ٩٣- التهجير الصيني في تركستان الشرقية ----- د. حلمي عبد المنعم جابر
- ٩٤- الفطرة وقيمة العمل في الاسلام ----- د. حلمي عبد المنعم جابر
- ٩٥- أوصيكم بالشباب خيراً ----- د. حلمي عبد المنعم جابر
- ٩٦- المسلمون في دوائر النسيان ----- د. حلمي عبد المنعم جابر
- ٩٧- من خصائص الاعلام الاسلامي ----- د. حلمي عبد المنعم جابر
- ٩٨- الحرية الاقتصادية في الاسلام ----- د. حلمي عبد المنعم جابر



الدكتور السيد رزق الطويل	٣٢- الدعوة في الاسلام عقيدة ومنهج
الأستاذ حامد عبد الواحد	٣٣- الاعلام في المجتمع الاسلامي
عبد الرحمن حسن حبيكة الميداني	٣٤- الالتزام الديني منهج وسط
الدكتور حسن الشرقاوي	٣٥- التربية النفسية في المنهج الاسلامي
الدكتور محمد الصادق عفيفي	٣٦- الاسلام والعلاقات الدولية
اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ	٣٧- العسكرية الاسلامية ونهضتنا الحضارية
الدكتور محمود محمد بابلي	٣٨- معاني الأخوة في الاسلام ومقاصدها
الدكتور علي محمد نصر	٣٩- النهج الحديث في مختصر علوم الحديث
الدكتور محمد رفعت العوضي	٤٠- من التراث الاقتصادي للمسلمين
د. عبد العليم عبد الرحمن خضر	٤١- المفاهيم الاقتصادية في الاسلام
الأستاذ سيد عبد المجيد بكر	٤٢- الأقليات المسلمة في افريقيا
الأستاذ سيد عبد المجيد بكر	٤٣- الأقليات المسلمة في أوروبا
الأستاذ سيد عبد المجيد بكر	٤٤- الأقليات المسلمة في الأمريكتين
الأستاذ محمد عبد الله فودة	٤٥- الطريق إلى النصر
الدكتور السيد رزق الطويل	٤٦- الاسلام دعوة حق
د. محمد عبد الله الشرقاوي	٤٧- الاسلام والنظر في آيات الله الكونية
د. البدر اوي عبد الوهاب زهران	٤٨- دحض مفتريات
الأستاذ محمد ضياء شهاب	٤٩- المجاهدون في فطاني
الدكتور نبيه عبد الرحمن عثمان	٥٠- معجزة خلق الانسان
الدكتور سيد عبد الحميد مرسي	٥١- مفهوم القيادة في إطار العقيدة الاسلامية
الأستاذ أنور الجندي	٥٢- ما يختلف فيه الاسلام عن الفكر الغربي والماركسي
الدكتور محمد أحمد البابلي	٥٣- الشورى سلوك والتزام
أسماء عمر فدعق	٥٤- الصبر في ضوء الكتاب والسنة
الدكتور أحمد محمد الخراط	٥٥- مدخل إلى تحصين الأمة
الأستاذ أحمد محمد جمال	٥٦- القرآن كتاب أحكمت آياته [٣]
الشيخ عبد الرحمن خلف	٥٧- كيف تكون خطيباً
الشيخ حسن خالد	٥٨- الزواج بغير المسلمين
محمد قطب عبد العال	٥٩- نظرات في قصص القرآن
الدكتور السيد رزق الطويل	٦٠- اللسان العربي والاسلامي معاً في مواجهة التحديات
الأستاذ محمد شهاب الدين الدوي	٦١- بين علم آدم والعلم الحديث
الدكتور محمد الصادق عفيفي	٦٢- المجتمع الاسلامي وحقوق الانسان
الدكتور رفعت العوضي	٦٣- من التراث الاقتصادي للمسلمين [٢]
الأستاذ عبد الرحمن حسن حبيكة	٦٤- تصحيح مفاهيم حول التوكل والجهاد
الشهيد أحمد سامي عبد الله	٦٥- لماذا وكيف أسلمت [١]
الأستاذ عبد الغفور عطار	٦٦- أصلح الأديان عقيدة وشريعة

## حياة المؤلف في سطور

- محمد قطب عبد العال .
- حاصل على ليسانس دار العلوم جامعة القاهرة .. في الدراسات الأدبية والاسلامية .
- حصل على الماجستير في التربية وطرق التدريس والمناهج .
- عمل مديراً لتحرير مجلة القصة التي تصدر في مصر وهو عضو باتحاد الكتاب .
- كتب في الدراسات الأدبية والنقدية وفي مجالات الابداع كالقصة والرواية والمسرحية .
- اتجه الى البحث في القضايا الاسلامية وكتب فيها مقالات كثيرة ومتنوعة .
- له كتب تتناول القصة القرآنية . أغراضها وأنواعها وقيمها الجمالية .